الباب الاول

الفردية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الاول

فردية مستترة

كنا نلعب لعبة تستدعي فريقين متباريين ، للفائز منهما جائزة بسيطة ، وتتلخص اللعبة فى هذا . يقف الصبيان فى فريقين متقابلين متساويين فى العدد ، ويعطى لكل من الصبيين الاولين (لقمة) ويطلب منهما أن يأكلاها بسرعة ويصفرا بعد أن يزدرداها ، وبعد ذلك تعطى (لقمة) أخرى لمن يليهما فيزدرداها ويصفرا أيضاً ، وهكذا دواليك الى أن ينتصر فريق منهما على الآخر

وحدث فى أثناء هذه اللعبة ماجعلنا نلمس تنطع واحد منهم فى الفردية البغيضة المرذولة تلك الفردية التى هى من أكبر غلطات الخلق المصرى ، لا بل من ضرباته ومصائبه التى تكاد تودى بالمظاهر الاجتماعية فى البيئة . قطعنا شوطا كبيراً فى هذه اللعبة الى أن كاد أحد الفريقين ينتصر على الآخر انتصاراً مبينا لولا أن الصبي الاخير من هذا الفريق أبى أن يأكل لقمته وتوقف عن ذلك كل التوقف ، فثارت ثائرة الفريق بجملته لحقوقه الاجتماعية التى تكاد أن تذهب هباء بتصرف فرد واحد

وللجماعة الحق فى الثورة ضد هذه الفردية القبيحة لانه ليس من المناسب أن يقف انسان بمفرده فى سبيل جماعة كاملة فيمنعها عن أن تحقق أغراضها التى تسعى اليها بجماعة . وفى الحق أن فرداً كهذا فى المجتمعات الراقية يجد أن الجماعة أقوى بكثير من ان يستهين بحقوقها أو يزدريها ، وأن للجماعة طرائق متعددة تستطيع أن تسلكها لتأديب أمثال أولئك الافراد ، ولكن الحال فى بلادنا بخلاف هذا بكل أسف ، فلمن شاء ان يزدريها بغير حساب أو عقاب

أصر صاحبنا هذا اصراراً شديداً على ان لايتناول اللقمة وثار عليه رفاقه

ثورة عنيفة ونظروا الى جميعهم ليروا ماذا أنا فاعل ، وقد كانت معضلة لان طرائقنا فى التربية تختلف عن الطرائق المتبعة فى بلادنا ، فليس يجدى فى هذه الحالة أن آمر الصبى أن يتناولها لانه قد يمتنع ويتقبل العقاب الذى فى مكنتى أن أنزله به ، وفى هذه الحالة يكون قد لحقه ضرر اخلاقى ليس من السهل ازالته

يضر الصبى فى مثل هـــذه الحالة لسببين ، أولا لانه قد يستقر فى ذهنه انى أكرهه ولا أقيم وزنا لشخصيته ، يشعر فى هذه الحالة انى متعسف ومتعنت وأرغب فى اذلاله وارغامه على غير طائل ، وكل مايجول بخاطره فى مثل هذه الحالة ان له كرامة يريد ان يدفع عنها ، ففى نظره أنه لم يخطىء ولم يعتد على أحد ولم يغتصب حقوق أحد ، وانما الجماعة تريده على أن يفعل أمراً لا يرغب فيه هو ، وهذا اعتداء منها لامبرر له فى نظره ، ثم آتى أنا أيضاً وأعين الجماعة عليـــه وأناصرها حتى تقهره وتخضد شوكة نفسه ، ان هذا لايطاق عنده وقد يمعن فى عناده ويوغل ، ثم ألح أنا فى عقابى وأوغل الى أن أرغمه على الخضوع ارغاما ، وفى هذه الحالة أكون قد ارتكبت خطأ لايعود ينفع معه تحبى اليه ، ولا أعود بمستطيع أن أؤثر فيه إلا عن طريق العنف والغصب

وهناك وجه آخر للمسألة وهو هذه الجماعة المكونة من عشرين صبياً التى تريد اذلال هذا الفرد الذى حقرها وفوت عليها أغراضها ، هذه الجماعة لايمكن ضبطها اذا ماأطلقنا العنان لها ، لانها ستقتص منه ويكون قصاصها شديداً لا يتناسب مع الذنب ، ففى طبيعة الأشياء ان الجماعات قابلة للانفعال والاضطراب الشديدين ، انفعالا واضطرابا منشاؤه العاطفة العمياء ، وبعد ان تثور جماعة كهذه ليس من الحكمة أن تسلمها المذنب أو تطلق لها العنان لتفعل معه ماتريد ، انما يحسن ان توقفها هى الأخرى عندحد لايجب أن تتعداه فى معاملتها للافراد المذنبين

لهذين السببين تركت الصبى لنفسه فى ذلك الظرف وحرصت على أن يرى

فريقه انه ليس لخيبتهم من سبب سوى فردية هذا الانسان وتعنته معها . وبالطبع أحاط به الصبيان وانهالوا عليـــه بالتوبيخ والتبكيت والتعجب لحاله هذه . . . فأغمضت عيني على هذا لحظة حتى يرى الصبي لنفسه كيف أنه أساء الى رفاقه ، بعد هذا منعتهم عن ان يسترسلوا ، ولكنهم خسروا الرهان بسببه على أي حال

ولاحظت كل الوقت ان الصبي لم يكن مرتاحا لما فعل . وكنت أرى من عينيه ومن تصرفه كله أنه قلق وخجل ومرتبك ، واعمنا نحن في العابنا المختلفة دون ان يحدث شيء آخر

وفي اليوم التالي أي بعد أن مر على هذا الحادث أربع وعشرون ساعة دعوته إلى مكتبي ، فدخل ، ووقفت هاشاً باشاً وسلمت عليه باليد وأجلسته أمامي . وبدأنا الحديث ، سألته عن العاب البارحة وهل أعجبته أم لا ، فأجاب انها كانت بديعة وانه سرمنها كل السرور ، ثم عرجت على ماحدث منه في اليوم السابق وسألته « وما رأيك فيما فعلت ؟ » فأجاب على الفور قائلا ، « الحق يافلان افندي اني كنت أبلهاً معتوها البارحة ، فلم أدر لماذا تصرفت هذا التصرف المعيب »

فضحكت وقلت حقاً ان لكل منا ساعة شؤم لايدري فيها مايفعل ، نحن نعد من العقلاء العاديين ولكن تنتابنا في بعض الاوقات نوبات من الجنون ، بعدها نفيق الى عملنا فنضحك من نفوسنا ، ولست أشك في انك ضحكت من نفسك بعد ان رجعت اليها تحاسبها على ماعملت . . . والآن ماقولك في هذا الحر الذي يكاد يمنع علينا انفاسنا . . . انك تعتني بشعرك كثيراً فهو منسجم مرتب . . وهكذا انتقلنا من حديث الى حديث حتى استأذن وانصرف

اظن اني نجحت في اكتساب ثقة هذا الصبي ، وانه وجد بالاختبار اني لست متعنتاً معه او مستبداً به ، اختبر هذا في احرج العلاقات بيننا ، لانه استرسل في عناده استرسالا كاد ينقلب الى عصيان وتمرد ، ولكنه وجد اني تمالكت عواطفي

ولم أتحمس أو أندفع وراء العاطفة لخمد شوكته أو اذلال نفسه ، لم افعل شيئاً من هذا مع انه كان فى استطاعتى فعله ولا يكلفنى ذلك كبير مشقة . كان يعلم ذلك حق العلم ويشعر به فى قرارة نفسه . لابل كان يتوقعه وينتظره ، الا انه كان يخشاه ويخافه ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . مع انه هو الشيء الطبيعى الذى يحدث بين كل استاذ وكل تلميذ . وقد كنت انا نفسى استاذاً فى عدة مدارس وأعرف بالاختبار كيف ان المعلم يثور لكرامته المزعومة عند مايخالفه تلميذ ، وكيف ينهال عليه بالتوبيخ ان لم يكن بالعقاب على تمرده وعصيانه . ولهذا السبب بعينه تتوتر العلائق بين الاساتذة والتلامذة فلا تعود المدرسة بيئة صالحة للنمو الاخلاقى فى الصبيان

ولست أنكر وطأة هذا الامر على نفسى ، لانى اشعر كما يشعر الاساتذة بأن لهم كرامة وان الطاعة واجبة لهم على تلامذتهم ، لست انكر ثوران العاطفة فى الانسان عند مايعصى الصبيان ويتمردون . ولا يغيب عنى ضغط هذه العاطفة للانسان ليفعل شيئاً أو ليوبخ وينتهر ويأمر وينهى او يعاقب ويضرب . كل هذا لست انكره ، ولكن يجب على الانسان ان يحكم عقله فى مثل هذه الحالات ويصبر ولو على مضض حتى يستطيع ان يعالج تلك الحالة الخاصة فى ظرف لاتكون العاطفة متحكمة فيه . وبذا يضمن ان علاجه ناجع مفيد . وانه برىء من التحامل والحقد والبغضاء ، او من العاطفة الفظة الغليظة

ثم يجب ان لايغيب عن بال الاستاذ ايضاً انه انسان ، وان حكمه كحكم جميع الناس . فهم متى ثارت عواطفهم يخطئون ، وخطاؤهم هذا تعود عواقبه على تربية الصبى . فلهذه الأسباب جميعاً ادعو الى التريث والصبر والاناة فى معالجة حالات الصبيان الخاصة . وبذا يكون العلاج أقرب للفائدة مما لو انفعل المربى للتو والساعة وعمل بموجب هذه العاطفة أو تحت تأثير هذا الانفعال

الفصل الثانى

الفردية : بحث نظرى

وقبل ان استرسل فى سرد بعض الحالات الاخرى عن الفردية أظنه يحسن بى ان أبحث هذه الظاهرة الاخلاقية من الناحية النظرية ، يحسن ان أحلل الفردية ذاتها مستقلة عن الحالات التى اكتشفتها فى أثناء اتصالى بصبيان هذا المعهد لأنه اذا لم يكن لهذه المشاهدات سند من النظريات العلمية الحديثة ، لايمكن ان تكون لها قيمة عملية كبيرة . والمؤلف يزعم ان النظريات العامة قد نبتت فى الأصل من الظواهر الموضعية والمشاهدات الخاصة ، وان كل ظاهرة من هذه يجب ان تستقيم مع النظرية العامة والا تسرب الشك الى المشاهدات او انهارت النظرية من أساسها

لقد زار المؤلف بعض بلاد أوربا وأمريكا ، فلم يجد الفردية المرذولة شائعة إلا فى مصر ، فالناس هناك افراد حقا ، ولكنهم جماعات أيضاً ، وحياتهم الاجتماعية هى اظهر فيهم من حياتهم كأفراد ، والجماعة عندهم لها حقوق ولها مميزات ، ولايجرؤ فرد منهم على العبث بهذه الحقوق وتلك المميزات ، لأن الجماعة قوية ، وعدم رضاها يقض مضاجع الفرد ويسلبه راحة الضمير وهدوء البال

هذا بخلاف الأمر فى مصر ، فهنا نحن افراد ، لا نهتم كثيرا بالجماعة . اذ ليس لها عندنا الحقوق التى يجب ان تكون لها ، والفرد منا يسير فى الارض طولا وعرضاً يفعل مايشاء ويقول مايشاء ، ولا يعمل حسابه فيما يقول ويفعل الا للافراد مثله ، ومادام عمله لايمس فرداً بذاته فهو يشعر أنه حر لا رقيب عليه ولا حسيب ولا يفهم أنه اذا كان للافراد عليه حقوق فبالأولى يكون للجماعة عليه حقوق أيضاً

وكلمة « الناس » لاتعنى شيئاً عنده ، فكل مايريد ان يفهمه هو هذا الانسان وذلك الرجل ، فالشاب مثلا يعترض السيدة فى طريقها . واذا حاولت ان توقفه عند حده يجيبك قائلا « وما شأنك أنت هل هى أختك ؟ هل هى زوجتك ؟ » ومادامت ليست أختك او زوجتك فانت فرد من الناس ، ليس لك حقوق بصفتك عضو فى هذه الهيئة ، وكل مالك من الحقوق فهو لك بصفتك فرد ليس إلا ، وبصفتك هذه لم يعتد عليك هذا الشاب ، فما شأنك عنده إذن ؟ دعه وجهاً لوجه مع هذه السيدة فالنزاع بين فردين ليس لثالث دخل فيه إلا عن طريق القرابة أو الزوجية

ذلك هو محصل فلسفتنا فى الاجتماع ، واقصد بذلك فلسفة الغالبية العظمى من سكان هذه البلاد . فالفرد منا يتعامل مع افراد آخرين وليس مع الجماعة ، ومادام لايحس هذه الجماعة ولا يراها أو يتحدث اليها وتتحدث اليه ، ومادامت لاتضع يدها فى يده ، أوتجذبه وتدفعه بالمعنى المادى الصرف فليس لها وجود بالمرة . أنه لايفهم معنى الجماعة بالمرة إلا من الوجهة المادية الصرف فمعناها عنده عشرة رجال او خمسون امرأة ، او ما اشبه ، وما ذلك الكائن المعنوى الذى تدعوه بالجماعـــة المصرية الا شيء خيالى لايحسن له وجوداً ، وبالتالى لايعمل له حساباً

وقبل أن نمعن فى شرح هذا الاجمال يحسن بنا ان ننبه الى الفرق الهائل بين فردية وفردية ، ويحسن لتقريب الموضوع للافهام ان نسمى أحـــداهما فردية (Indiviidualism) والاخرى شخصية (Individuality) وان كان أصل الاثنين واحد فى اللغة الانجليزية

والشخصية إمر مرغوب فيه ، وكل نظام لايسمح لها بأن تنمو وتشتد وتقوى انما هو نظام عليل تجب مداواته ، لأنه على مقدار نمو الشخصيات يتوقف خير الجماعة كلها . والشخصية هى مجموع خصائص الفرد التى تميزه عن سواه ، فكل

واحد منا له طريقة خاصة فى التحدث والسير والجلوس والقيام وله أيضاً طريقة خاصة فى التفكير والتعبير عن افكاره . وبالاختصار ان كل ما يميز انساناً عن آخر فى هذا العالم هو شخصيته . وهذا الاختلاف ضرورى لتقدم الانسانية . لأنه لولاه لكان كل منا صورة طبق الاصل للاخر ولما كان من الحكمة فى شىء أن توجد هذه الملايين من الناس . فكان يكفى انسان واحد لتعمير هذا العالم ولكن لما كنا نختلف احدنا عن الآخر فلا بد من وجود الجميع

فالشخصية اذن هى عبارة عن التنوع والتباين فى العقول والميول والرغبات والآمال . وهذا التنوع والاختلاف ضروريان ويجب العمل المتواصل لتوافرهما فى الافراد . وبذا يكون الواحد منهم متمما للاخرين ومكملا لوجودهم . وكما يقول الاستاذ ديوى أن «الشخصية فى معناها الادبى والاجتماعى هى شىء يصطنع ويقصد بها الاقدام والابتكار وتنوع الكفايات والأضطلاع بالمسئوليات التى تنجم عن عقائد الفرد وتصرفاته ، وكل هذه ليست هبات لدنية وانما هى أمور مكتسبة » وعلى هذا فهى مما يغرس ويشجع ويكون موضع التعهد والرعاية

والفردية شىء غير الشخصية . فالاولى جزء من محبة النفس والتنكر لما عداها من الانفس ، وهى لاتستقيم فى الجماعة ، وليس بينها وبين الجماعة من الامور المشتركة الا النزاع المستمر والقتال المستديم ، ومن خصائص الفردية أنها ضيقة محدودة عمياء لاترى شيئاً مما عداها

وهى فى قتال مستمر مع الجماعة على الوجود ذاته ، وليس على الحيازة كما هو الحال مع محبة الذات ، وفرق كبير بين ان يقاتل الانسان للوجود وبين ان يفعل ذلك لحيازة شىء آخر . فقد يكون من مصلحة المحب لنفسه ان يتعاون مع الجماعة ويسير معها ويعينها على تحقيق أغراضها لان هذه الاغراض بذاتها تفيده وتعود عليه بشىء ، ثم قد يجوز ان يخضع الانسان المحب لنفسه للجماعة ليتقى غضبها وينجو

بنفسه من عقابها . وما عدا ذلك فقد يجوز ان تلتقى الفردية بمحبة الذات

ليس للفردى مصلحة فى التعاون مع الجماعة ، بل كل مصلحته فى ان تتركه الجماعة لشأنه يفعل مايشاء ، فنزعته اذن فى ان يشذ ويغاير الجماعة ليس لسبب آخر إلا لأنه لايحب الاجتماع ولا يهتم لما يهتم له المجموع . انه لاينفر من التعامل مع الافراد كافراد ، فيأخذ منهم ويعطيهم ، ولا ينفرمن ذلك لان فرديته فى هذه الحالة تبقى قائمة بنفسها كما هى ، فليس يطلب اليها ان تندمج فى الجماهير

يشعر الفردى أنه فى كفة ميزان ، وأن الجماهير فى الكفة الاخرى ، فان رجحت الجماعة شال هو ، والعكس بالعكس ، أى ان نفسه تكبر وتتضخم الى ان تعدل مجموع باقى الناس ، فيصير فى هذا العالم طرفان فقط ، أحد هذين الطرفين هوالانسان الفردى ، والطرف الثانى الناس جميعا أو الجماعة التى يوجد هذا الفرد بين ظهرانيها ، يقول هوبهوس « ليس كل نمو فى الفرد مستطاعا أو مرغوباً فيه من الوجهة الاجتماعية . لانه لو أخذت شخصية بذاتها تتضخم وتكبر الى أن تصير كالمارد الجبار تذرع هذا العالم الصغير طولا وعرضا ، لما تبقى لباقى الناس الا أن يضؤلوا ويصيروا كالقبور القذرة ، فنمو الشخصية فى هذه الحالة معناه فناء الآخرين ، وهذا هو الحال مع كل نماء لايتناسب مع الحالة الاجتماعية . فالمقصود من النمو الاجتماعى اذن هو النمو المتناسب لافراد هذه الجماعة »

وليس بين الفردى والانانى الا خطوة قصيرة قد يخطوها فيصبح محبا لنفسه أيضا . فالاول لايرى خيراً فى الجماعة والثانى يزيد عليه درجة واحدة ، وهى انه يرى ان فيه الخير والبركة وهذه خطوة قصيرة كما هو واضح ، الاول يحتقر الجماعه والثانى يعبد نفسه

وبعد هذا نرجع الى الفردية نفسها لنقول انها مضرة بالجماعة البشرية ، أولا لانها تفكك وحدة هذه الجماعة . اذ لايستطيع انسان ان ينكران البشرية وصلت

إلى ماوصلت اليه لانها كانت دائما تعمل كوحدة . وليس يعنى هذا انها لم تكن تتقاتل وتتجزأ الى فرق . وانما المقصود ان الانسانية كانت متضامنة بشكل من الاشكال . حتى ان كل ماعمل لها فى جهة ما وصل صداه الى الجهة الاخرى . فعند ما انتصب الانسان القردى Pithecanthropus Erectus على قدميه فى جزيرة جاوه . انتصب كل انسان على الارض ، وعند ماأفلح المصريون وادى النيل أفلح الانجليز وادى التاميز

تدل كل هذه الأمور واشباهها على ان الانسانية وحدة لاتقبل التجزئة ، وانها فى هذا كالجسم الحى له أعضاء . ولا يتأتى فصل الاعضاء عن بعضها ، بل يجب الاعتناء بكل عضو بمفرده وذلك لخير الجسم جميعاً . فالفردية هى معول يعمل لهدم وحدة الجماعة . ومتى شاعت الفردية فى أمة فقد شاعت الفوضى والفوضوية أيضاً ، يقول فوييه (Fouillee) « ان اكبر خطر يجب ان تتقيه الامة الديموقراطية هو تفكك الجماعة الى وحدات ليس لكل منها هم الا ما كان متصلا بالنفس مباشرة يجب ألا تتفكك الى افراد يتناقص فيهم الشعور بالعلاقات والمسئوليات الاجتماعية» يقول هوبهوس « كان بعض كتاب القرن الثامن عشر يزعمون انه لو اتبع كل انسان ميوله Interest وسعى الى خيره لنتج من ذلك أحسن النتائج الاجتماعية الممكنة . ولكن الحقيقة ان الحياة للأسف ليست بهذه البساطة . لانه وجد ان سعى الانسان وراء ميوله وفائدته متخذاً فى ذلك أقرب الطرق الى اكبر الفوائد Desire لايعود على سلامة الجماعة أو تقدمها »

فى طبيعة الأشياء ان الفردية عدوة التعاون أيضاً ، لأن هذا يتطلب مجهوداً مشتركا يقوم كل فرد منا بقسطه فيه . قد تدفعنا الضرورات الاقتصادية الى التعاون مع باقى الناس طوعا أو كرها . الا ان ضرورات الاجتماع ليس لها قوة الامور الاقتصادية ، ولذلك نجد انه ليس للفردى مندوحة عن ان يختلط بالجمهور فى

البيع والشراء والأخذ والعطاء ، ولكنه عند مايترك لنفسه بعد ذلك ينزوى عن الجماعة ويقطع كل علاقة له معها ، فتتسع شقة الخلاف بينهما ولايعود يجمعهما شيء الا ماكان من الضرورات القصوى

لايجد الفردى غضاضة على نفسه فى التعاون مع المعاهد والمنشآت ولكنه لايستطيع أن يتعاون مع الافراد والجماعات ، وبمعنى آخر لايشعر الفردى بحرج فى ان يستعمل الترام ويذهب الى دور الصور المتحركة ويقوم بأعماله المطلوبة منه فى المكتب أو المصنع . فهو يستطيع ان يفعل كل هذه واشباهها . اما انه يجتمع الى رفاق ليقوم بمشروع مشترك ، أو ينضم الى جماعة للتسلية البريئة فلا ، ذلك لان هذا يتنافر مع ما اعتادته نفسه ، فهو يأخذ من الجماعة ماهى مستعدة لأن تعطى وينتفع بكل منافعها العامة والخاصة ، ولكنه لايحرك أصبعاً ليتعاون مع الجماعة فيما يعود عليهم جميعاً

يشبه الفردى انسانا متحذلقاً فى ملبسه يسير فى سوق احدى القرى تزحمه الناس من على جانبيه ومن خلفه ، هذا الظريف لايريد أن يحتك بالناس الا مضطراً ، ومتى خلص من هذه الجماهير أطلق ساقيه للريح ، وضرب فى مناكب الارض بعيداً عنها . يلعن الصدفة التى أوجدته فى هذا الزحام ، وانسان هذا شأنه من العبث الذى لاطائل تحته ان تطلب اليه ان يعاونك فى بيع سلعك أو شراء سلع الآخرين ، فهو لايحس ان بينه وبين هؤلاء الناس شيئا مشتركا

وهؤلاء الفرديون فى الواقع مغفلون ان لم تكن الفردية فى اصلها مرض من الأمراض النفسية . اذ لايستقيم للافهام ان انسانا سليم العقل والعاطفة يزدرى بالجماعة التى ولد ونشأ وترعرع فيها مهما كانت حالة هذه الجماعة . لانه اذا لم يكن لها فضل مطلقا فكفاها فخراً انها انتجت انسانا مثله ، هذا من وجهة نظره هو ، أما نحن فنزعم أن الجماعة التى تنتج عدداً كبيراً من هؤلاء جماعة مريضة ، ويجب

ان يحرص العقلاء فيها على معالجتها بكل الطرق الممكنة

كل ماللفرد من مميزات مكتسبة أو موروثة ، وكل ماله من حضارة ومدنية وثقافة هو من فضل جماعته عليـــه ، لابل ان الخرقة التى يستتر بها واللقمة التى يتبلغ بها هى جميعا من خيرات الجماعة عليه . فلولا الجماعة المصرية مثلا لما استطاع فرد من الافنديات أن يلبس السراويل ، لانه لو ولد فى أواسط أفريقيا لما كان له الا ان يسير عاريا ، كل هذه الأيادى التى للجماعة عند الانسان الفردى تغدو منسية ولا يبقى من كل هذا الا هو لنفسه ، وحتى هـذا أيضا تنازعه فيه ، يقول الاستاذ صورز « ليس للشخصية معنى من دون علاقتها بالجماعة ، لانه ماذا يبقى من (أنا) بعد ان ينتزع منها كل الاختبارات التى كانت لى كأبن وأخ وزوج وأب وصديق ومواطن ومعيد لما عمله الانسان فى الماضى ومتخيل لما سيعمله فى المستقبل . . . ؟ حقا ليست هذه العلائق وحدها هى (انا) لان لى شعور بوحدتى الشخصية وهى التى تجوز كل هذه الاختبارات ، ولكنى حصلت على هذا الشعور وحزت هذه الشخصية عن طريق العلاقات الاجتماعية ، فانا لست أنا الا عن طريق هـذه العلاقات فقط ، وبغيرها لست أعد شيئاً مذكوراً ، وبعد فأن غنى الشخصيات هو فى الحياة الاجتماعية ، وكما تكون حيوية الجماعة كذلك تكون حيوية أفرادها » ، ويقول بلدوين « ان النمو الطبيعى للفرد يقوده الى الشعور بالوحدة الاجتماعية ، ومن الجهة الاخرى ان استعماله لمميزاته الاجتماعية وقيامه بواجباته للجماعة يؤديان إلى تقدم شخصيته والى كمالها »

يتبين من هذا ان هؤلاء الفرديين هم فى الواقع ضربة على الجماعة التى ينتمون اليها ، وحجر عثرة فى كل خطوة تخطوها ، انهم يعطلون الروح المعنوى للجماعة عن ان تبلغ مداها الذى تستطيع ان تبلغه اذ يكفى للقضاء على الروح المعنوى للجماعة ان يشذ عنها بعض الافراد كما تدل على ذلك أبسط قواعد عـــلم النفس

الاجتماعى (Social Psychology) وعلى من اراد ان يتحقق هذا لنفسه ان يلقى نظرة على المشروعات التعاونية العامة ، فان نكوص بضعة أفراد عن مشروع من المشروعات يكفى لهدمه من أساسه ، ولم حالة من هذه الحالات وقعت تحت حس الجمهور المصرى حتى وقر فى نفسه اننا لا ننفع لشىء ، وما انا نذهب الى المشروعات ، اذ أنت تستطيع ان ترى أثر الافراد فى الجماعات فى عرض الشارع ، ففى حشد يعد بعشرات الألوف يكفى لتفريقه ان يجرى بعض الافراد نكوصا على الاعقاب

فاثر هؤلاء الفرديين فى الحياة التعاونية اثر خبيث لأن موقفهم بازاء هذه الحياة ليس سلبياً فقط بل ايجابياً أيضاً بمعنى انه ليس من طبيعة الجماعات ان تترك هؤلاء وشأنهم ، فكثيراً ما يسير الناس على غرارهم ويترسموا خطاهم فيقضون على جهود الجماعة ، فوجودهم ذاته مثبط لهمة الجماعة ومضيع لجهودها وداعية لخذلانها ، ومن لنا بتذكير هؤلاء الفرديين ان فى خذلان الجماعة بأى وجه من الوجوه خذلان لذواتهم ، أظنه برنارد شو الذى قال مرة ان أردت ان تعيش فى هذا العالم فلا بد لك ان تقاسمه اقداره . أما ان عز عليك ذلك فيجدر بك ان تبحث لك عن كوكب آخر بخلاف هذا لتعيش فيه ، يقول هوبهوس الفيلسوف الانجليزى « ينتج من هذا أن نمو الجماعة وتقدمها هو فى نفس الوقت تقدم للافراد واذا كان معنى النمو الاتجاه الى حياة فائضة ومليئة بالمعانى ، فتقدم الجماعة هو فى الواقع توجيه لحياة أفرادها الى الكمال والامتلاء » ويقول ديوى « من واجب الرجال ان يتعهدوا كفاياتهم وميولهم وشخصياتهم حتى يستطيعوا أن يجدوا لذتهم فى القيام بما يطلب منهم كافراد فى جماعة ، قد يجوز ان هذه اللذة قصيرة الأمد قليلة الكمية ، ولكنها فى نوعها ترجح كل الآلام الملازمة لها وترجح أيضاً كل أنواع اللذات التى يضطر الفرد لأن يتركها فى سبيل سعيه للجماعة . أننا نجد مصداق هذا القول فى الحقيقة البسيطة الآتية ، وهى ان الناس يختارون هذا المسلك

عن قصد وروية ،

فالفردية هي أولا ضرب من حب النفس وثانياً هي تغفل أو نوع من الامراض النفسية ، وثالثاً هي تحقير وازدراء بالجماعة ، ثم انها رابعا معطلة للتعاون والمظاهر الاجتماعية الاخرى ، وهي خامسا مضرة بالفرديين أنفسهم وبالجماعة التي وجدوا بين ظهرانيها واضرارهم ليست سلبية فقط بل ايجابية أيضا

وبعد كل هذا نتساءل هل يمكننا ان نتخلص من الفردية ؟ أم هي داء عضال انتاب الجماعة المصرية ولن تستطيع منه انفكاكا ؟

أننا نتبع فلسفة التفاؤل ، فنظن انه يمكن اقتلاع هذه الخصلة تدريجياً على مر الزمن ولكن يجب توافر عوامل كثيرة وتضافرها على تطهير البيئة تطهيراً نسبياً من هذا المرض وتتخير من هذه ثلاثاً فقط

١ — الجماعة

على الجماعة واجب يجب ان تؤديه لخيرها ولسلامتها . وواجبها هو ان تشتد على هؤلاء الفرديين ، لأن اهمالها يشجع هذا الصنف من الناس على ان يوغل فى ازدراء الجماعة والاستهانة بها وبحقوقها ، وفى الحق ان مجرد وجود هؤلاء الفرديين هو دليل مادى على ان الجماعة لم تعرف كيف تحترم نفسها وتحافظ على كرامتها ، فالفرد لايوغل فى فرديته الممقوتة مالم يكن مستهينا بسخط الجماعة وغضبها ، وسيان عنده ارضيت أم غضبت لأنها فى كلتا الحالين ليست تقـــدم ولا تؤخر عنده ، والانسان بطبيعته لايسعى وراء رضاء كائن ما أو الى اتقاء غضبه مالم يكن يوقن ان لرأى هذا الكائن قيمة واعتباراً

فلولا ان الفرد لايشعر ان لهذه الخلائق المجتمعة عند نافذة تذاكر السكة الحديدية مثلا قيمة واعتباراً لما اجترأ على أن يشق له طريقا وسطها يدفع هذا ويجذب ذاك ويضايق غيره ليصل الى النافذة قبل الناس جميعاً ولولا ان هؤلاء الناس جميعاً لايحتجون أو يرفعون

اصبعا فى وجهه لما سولت له النفس أن يفعل فعلته ، وعلى من يشك فى هذا ان يجرب هذا التصرف فى بلد راق كامريكا أو انجلترا مثلا ، هنالك لايجرؤ احد على هذا ليس لأن البوليس يمنعه كما يزعم البعض ! كلا فان مثل هذه الاجتماعات لايتحتم فيها وجود البوليس ، ولكنه لايستطيع ان يفعل ذلك لأن روح الجماعة لايسمح بمثل هذا التصرف

لاتحتاج الجماعة فى هذه البلاد لأن تضرب المعتدى أو ترد اعتداءه عليها بالقوة المادية ، ان شيئا من هذا لايكون ، بل كلما تفعله الجماعة هو ان ترمقه بعين الازدراء دون ان ينبس احد ببنت شفة . فيحار ذلك الفرد ويرتبك ولا يدرى ماذا يفعل سوى ان يعتذر ويرجع الى مكانه ، فليس فى امكان الفرد مهما كان ممعنا فى الفردية ان يثبت تحت هاتيك النظرات التى تصوب اليه من كل صوب وحدب

ولقد خطر لى يوما ان أجرب هذا فى مصر ، وكنت أريد ان ابتاع تذكرة من القناطر الخيرية الى القاهرة ، ووقف كل منا فى مكانه ينتظر ، فاتى انسان من هذا الطراز ودفع هذا وجذب ذاك وضغط الآخر الى ان وصل الى النافذة ، وكنت فى ذيل الجماعة كلها فتصديت له لأرى ماذا يكون من شأنه ، ولكنى عجبت جداً لأنى وجدت الجمهور قد أخذ يلومنى أنا ، فعلمت أنى أخطأت اذ اعتمدت على معاونة الجمهور قبل ان أتأكد انه يعلم ما أرمى اليه ، فحاولت ان اخلق رأياً عاما ضد المعتدى ، وفزت بذلك ، وتحول الرأى العام ضده ، ولكنه رأى عام ضعيف لم يؤثر فى المعتدى كثيراً ولم يغير شيئاً من تصرفه ، ولكنى رأيت من عين هذا الرجل انه لم يكن مرتاحا هادىء البال ، ثم أخذ يقلق ويضطرب ، واخذ يعتذر لهذا ويبرر سلوكه امام ذاك ويدعونى أنا لكى آخذ مكانه

فالرأى العام قوى بطبعه ، ولكنه لايدرى انه قوى ، ويدرج على هذا الجهل بقوته ، فيشجع هؤلاء على تصرفاتهم المعيبة . لا بل كثيراً مايظهر اعجابه بهؤلاء كأن

يقهقه ويضحك ويسر لهذه التصرفات . فهى فى نظره تدل على تفوق ونبوغ فى الفرد والحال انه كان يجب على الجمهور ان يعبس لكل من يستهين بحقوقه . ويظهر أن الاستاذ كو كان محقا حينما قال « ان أصل الغرائز والعادات الضارة بالجماعة هو فى الواقع فى معاهدنا الاجتماعية نفسها وفى العادات والرأى العام فيظهر ان الجماعه تنتظر من الافراد ان يكونوا محبين لذواتهم ، وقد تكافئهم على هذا بالفعل »

وهذا التساهل مع الفرديين يختلف تبعاً لاختلاف الجماعات . فالفردية تضطرد عكسا مع المدنية ، لانه كلما ارتقت الجماعة واوغلت فى الحضارة والمدنية تناقصت الفردية فيها ، وقد يستطيع الانسان ان ينظر لهذه المسألة من الوجهة الاخرى فيزعم انه كلما قلت الفردية البغيضة ارتقت الجماعة . يستوى هذا وذاك فى نظرنا ، لانه فى كلتا الحالتين نرى ان الواحدة منهما لاتستقيم للاخرى

وعلى أى حال ان واجب الجماعة ظاهر واضح ، واجبها ان تثق بنفسها قليلا وعلى المستنيرين والمتعلمين فيها ان يثقوا بها نوعا فيؤلبونها ضد الفرديين انى وجدوا ، قد تقهر الجماعة وتفشل فى حالات كثيرة ، ولكن يجب ان يكونوا مستعدين لأن يستحثوا همتها فى كل المواقف . يجب ان يؤدوا الامانة التى فى عنقهم فينوروا الرأى العام ويهذبوه لكى يستمسك بحقوقه أياً كانت هذه الحقوق

وفى ختام هذه النقطة يستطيع المؤلف ان يسر للروح الجديدة التى أخذت تنبثق فى الافق المصرى فى السنوات الاخيرة . فالرأى العام له الآن من القوة مالم يكن له قبل حركتنا من منذ سنة ١٩١٩ ، لايزال الطريق شاقا ووعرا امامنا ، الا اننا نأمل ان يتنبه الجمهور لبعض حقوقه ، ويدفع المعتدين عليها بالحسنى ، وكثير من هذا يتوقف على جهود الافراد المستنيرين

٢ — المدرسة

والعامل الثانى فى هدم الفردية أو تضييق أفقها هو البيئة المدرسية ، فالمدرسة هى

المكان الذى يوجد فيه الصبيان بياض نهارهم ، وهى التى تخص نفسها باحسن اوقاتهم واكثرها امتلاء بالنشاط واستعداداً للحركة والحياة ، ثم انها رأى عام فى نفسها ، ومتى تقوى فيها الشعور بهذه الحقيقة ، وبأن لها كجماعة بشرية منظمة مثلا ومبادىء مقررة لايصح للفردى ان يعبث بها ، متى تقوى فيها هذا الشعور يكون نفوذها أفعل فى حياة الصبيان من أى جماعة أخرى يوجدون فيها ما خلا العائلة نفسها . والصبيان فيها فى سن يستطاع معها توجيه ميولهم الى الوجهات التى تريدها . لأنه ليس فى استطاعة الرأى العام خارج المدرسة الا ان يعاقب الافراد ، أى ان طريقة الرأى العام سلبية ولكن المدرسة تستطيع ان تغرس الميول الاجتماعية الموجبة فى نفوس الصبيان

ليس المؤلف على اتفاق تام أو غير تام مع برنامج التعليم فى بلادنا ، لأنه يرى به من العيوب مايجعل النفس تثور فى كثير من الحالات . فالبرنامج مزدحم بالمواد ازدحاما مريعا ، ثم انه يفرض فى الصبى أنه يستطيع كل شىء من الوجهة العقلية والبدنية . أى انه يفرض فى التلميذ القدرة على ان يتعلم أى شىء تحت الشمس مادام يتدرج فيه من السهل الى الصعب . فمتى بدأ بالجمع فى الحساب مثلا يستطيع ان يدرس الطرح والضرب والقسمة والكسور الاعتيادية والعشرية والارباح المركبة والبسيطة وهكذا الى مالا نهاية . ولا يخطر فى بال واضع البرنامج ان لهذه حدودا لا داعى لأن يتعداها الصبى إلا إذا كان يزمع ان يتخصص . ولست أفهم لماذا يفرض على الصبى ان يظل يصارع علما واحدا بذاته بعد ان بدأ فيه ، لماذا لاتسقط المدرسة بعض هذه العلوم عند حد محدود . ثم لماذا يفرض فى الصبى ان يقضى الاسبوع كله داخل جدران الغرفة . لماذا لايكون له ساعات من الفراغ يطلب اليه ان يقضيها فى شىء آخر بخلاف الجلوس والاستماع الى الاستاذ ثم لماذا ينتظر من صبى الكفاءة مثلا ان يدرس سبعة عشر علما ويخرج منها جميعا بلا شىء

سوى القراءة والكتابة وبعض مبادىء الحساب ؟ كل هذه أسئلة تدور بخلد المؤلف ولا يجد لها حلا معقولا

ولكن هذا يبعدنا عن الغاية التى وضع من أجلها هذا الكتاب فلنترك هذه الأمور لوقت آخر. وانما هنا لك شيء تريد أن ننبه اليه الاذهان ، وهو ان الصبى بعد كل هذا الوقت والجهود اللذين يصرفهما فى المدرسة وبعد أن يخرج منها منهوكا مضعضعا بعد كل هذا يطلب اليه أيضا ان يسهر فى منزله ليتم ما نقص من الدروس ، يسهر ويدرس ويذهب الى المدرسة ثم يعود ليسهر ويدرس وهكذا يدور فى حلقة لعينة مفرغة وهو فى هذا كرقاص الساعة يعود من اليمين ليذهب الى الشمال ويرجع من هذا الى ذاك ، الحق انه يحسن بالمدرسة أو بوزارة المعارف أن تضع حداً أقصى للمذاكرة والدرس ، ويحسن ان يكون كلاهما فى المدرسة تحت ارشاد الاساتذة ، ثم بعد ذلك يتركون الصبيان وشأنهم يقضون باقى الوقت فى اللعب والمراح والرياضة ، لأنه اذا كان مفروضا فى الكبير ان يشتغل ثمانى ساعات فقط فكيف نفرض على التلميذ ان يشتغل أكثر من هذا ؟ ان للنشء حقوقا ولا يصح لوزارة المعارف أن تغفلها

الحق ان الصبيان فى بلادنا محتاجون الى الالعاب الرياضية بأنواعها ، لأنهم فى حالتهم الراهنة محرومون منها حرمانا مضراً بهم . فالبرنامج طويل يضطر الصبى لان يدرس كثيرا ، والاساتذة وراءه يلهبون نفسه وبدنه ايضا ليكب على الدرس والمذاكرة ، والآباء لا يتركونه لنفسه قليلا . بل يصرون على ان يحملوه فوق ما تحمل قواه فلا يرضى الاب لابنه بأقل من الاولوية فى الفرقة . وما دروا انه يستحيل ان يكون جميع الصبيان الاوائل فى فرقهم

يرى المؤلف ان الصبيان فى مصر مظلومون حقا ، وان جميع العوامل تضافرت على ان تحرمهم من حق من الزم الحقوق لهم الا وهو حق اللعب والمراح

والاستمتاع البرىء بالحياة ، فليس لحياتهم غاية سوى ان يستوعبوا المعلومات المدرسية ويستظهروها . انها حياة ثقيلة حقا معطلة للنماء المستكمل

ومع ذلك ان كان غرض الحياة هو استيعاب الحقائق فاللعب من خير السبل التى تؤدى الى هذه الغاية . لانه لو كان للصبي قدر كاف من اللعب المنظم تحت ارشاد الاخصائيين الذين يحرصون على ان يسددوه الى غاية معينة لاصبح الصبي أقدر على حيازة المعلومات وأكثر استعداداً للقيام بمطالب المدرسة وذلك لان الرياضة البدنية هى فى نفس الوقت رياضة للمخ وللجهاز العصبي ، وهذان هما اداة المذاكرة والحفظ ، ان كانت المذاكرة والحفظ هى كل مانحرص عليه

واللعب فى ذاته خير ، اذ هو من أفعل الوسائل فى تقويم الاعوجاج البدنى الذى يصاب كثيرين من الصبيان بسبب طول البرنامج وتشعبه وخروجه عن الحد المناسب الذى يتفق مع صحة الابدان ، والحق ان الانسان ليحزن ويكتئب اذ يجد ان الغالبية العظمى من صبياننا عليلة بشكل من الاشكال ، ويكفى للتحقق من هذا أن يزور الانسان أحد معاهد التربية فى بلادنا ، لانه لايكاد يجد فرداً سليما فى كل هذه المئات والالوف ، فهذا ضعيف البصر ، وذاك ثقيل السمع ، والآخر محدودب الظهر وغيره اصفر الوجنتين ، وآخر تقرأ آيات البؤس مسطورة على وجهه كأنه ماخلق إلا ليكون متطيراً ومتشائما

وكل هذه النقائص أو معظمها هى شر من السهل ازالته بقليل من التروض المنتج النافع . فلو كان للصبيان من يعتنى بصالحهم ويسعى وراء خيرهم لما وجد كثير من هذه النقائص . ويكفى لكى ترى الفرق الكبير بيننا وبين غيرنا من الامم أن تأخذ مائة طفل من مدارسنا وتصفهم وتقارنهم بمائة مثلهم من أبناء الغربيين . أنك لو فعلت فلا بد ان ترى ان الاوربيين يبزوننا قوة ونشاطا وحيوية ، والالعاب الرياضية على اختلاف أنواعها هى من أهم الاسباب لهذا النشاط وتلك الحيوية

يقول جانجز « كان ينظر للعب فى العصر الماضى على أنه مضيعة للوقت ، ولكن الدراسات العلمية الحديثة دلت بما لايدع مجالا للريبة والشك على أن اللعب هو أفضل أنواع النشاط لتنمية القوى . . . . . وأغلب الظن أن الطفل يتعلم وينمو عن طريق اللعب أكثر مما يتعلم وينمو من أى شىء آخر . . . . ولقد دلت الدراسات الحديثة أيضاً على ان الاطفال الذين يلعبون يتفوقون فى القوة العقلية والجسمية على غيرهم ممن لايلعبون »

وللالعاب أيضاً من الأثر فى الأخلاق مالا يمكن انكاره أو المكابرة فيه ، لان هذا المبدأ مفروغ منه ، فعلماء التربية قد اجمعوا على ذلك . وما كتب فى هذا الموضوع يملأ مكتبة كبيرة ، ولم يقرأ المؤلف فيما قرأ ان أحداً من علماء التربية فى عصرنا ينكر هذه الحقيقة . يقول ديوى « ان اللعب والفن ضرورات اخلاقية أوأدبية ، ويحتاج اليها الانسان لانها تتكفل بما يتبقى من غرائزنا بعد ان نكون قد صرفنا جزءاً منها فى أعمالنا الاخرى ، فهما يحفظان التوازن البدنى والنفسى اللذين لايمكن للعمل أوالشغل أن يحفظهما إلى مالا نهاية ، هما ضروريان لانهما يدخلان التنوع والمرونة ودقة الاحساس على طبيعة الانسان » ويقول شابمان وكونتس « ان اللهو ينمى الملكات ، ويطيل عهد الشباب لانه يوجد الشرائط العقلية والبدنية الضرورية للشباب . . . . وفوق كل شىء آخر نرى ان اللعب يكسب الحياة لونا وحلاوة وجمالا »

وغير ذلك ان جو المدرسة كما هى فى بلادنا الآن يختلف كثيراً عن الجو الذى يصلح للاحوال الاجتماعية ، اذ ماذا يطلب من الصبى ان يفعل فى غرفة التدريس الآن ؟ وهل نشاطه المدرسى فى الحالة الراهنة يعود على خصائصه الاجتماعية أم لا يعود ؟ نرى انه فى النظام الحالى لا يطلب من الصبى فى الفرقة الا ان يدل على مبلغ تحصيله من العلم الذى يدرسه ، مطلوب منه ان

يظهر للاستاذ مقدار تفوقه على رفاقه ، لأن طبيعة الدرس في النظام الراهن تستحثه على ان يغلب هذا ويرد خطأ ذاك ، ويتقدم على الآخر ، ويظهر افضليته على غيره ، فيسر الاستاذ لهذا التلميذ النجيب لأنه وطأ كل الرءوس الاخرى بالاقدام ، وظهر وطفا على هذا الحشد . وتفرد من دونهم فليس منهم واحد يطمح في ان يباريه

فالشوط هنا بين أفراد . والافراد هم الذين يفوزون . وبجهود الفرد يعود عليه دون غيره . ولن يعود شيء مما يفعل على الآخرين . فهو فردي . ونظام الفرقة يستحثه على ان يكون فرديا ، ومن مصلحته ان يكون كذلك ، ثم من مصلحته ايضا ان يفشل الباقون . فنضاله هذا هو عن النفس ليس غير ، وفي سبيل تلك النفس ماهو فاعل . اذ لايعقل ان الطالب يحفظ دروسه لفائدة فرقته . لأن هذه لاتدخل في حسابه ، ويجب ان لاتدخل في حسابه

وبعبارة اخرى ان نظام المدرسة عندنا كما هو على حالته الراهنة يتطلب من الصبي ان يكون فرديا فحسب ، بمعنى انه لايغريه ان يفعل شيئا لأجل الجماعة التي يعيش فيها . الى هنا ليس لنا مانعترض به على هذا ، لأن غاية التعليم ان يحصل الصبي لنفسه على أقصى مايستطيع الحصول عليه ، اذ أنه سيستفيد وقد يفيد الجماعة بمحصوله العلمي في يوم من الايام ، فلتدرج المدرسة اذن على هذا النظام ولنستحث الصبي على ان يجمع لنفسه من المعلومات أقصى مايستطيع جمعه

وأما من الوجهة الاجتماعية والأدبية فلا يمكن ان تترك المسألة عند هذا الحد لأن هذا النظام يتناسى الجماعة ، ولايجعل لها محلا في حياة الفرد ، لأنه اذا كان يطلب الى الصبي ان يقضي حياته الأولى على هذه الوتيرة ، فمن أين له الصفات الاجتماعية التي يتحتم ان توجد فيه لكي يستطيع ان يعيش وينشط في الجماعة ؟ كيف تنمو فيه هذه الخصائص ؟ وكيف يكتسبها بالمران والخبرة ؟ كيف يفعل هذا وليس له مجال لأن يختبرها في حياته اليومية . وحياته كما هي الآن مبنيـــه في

جعلتها على الفردية التى ظهر لنا أنها لاتستقيم وحياة الجماعات

وهنا الدور الذى تقوم به الالعاب الرياضية . وخصوصاً ما كان منها يتطلب تعاون الفرد مع الجماعة . ففى اللعب الذى من هذا القبيل ينسى الصبى الفردية التى اضطرته لها أنظمة المدرسة . هنا يضطر لأن يجاهد ويناضل من أجل جماعة من الجماعات . وكل مجهود يبذله يعود عليها ويقربها من غايتها التى تسعى اليها . والنجاح الذى يصيبه والاشواط التى يربحها ملك للجماعـــة كلها . وليس له منها الا مالكل فرد آخر من فرقته ، فليس للفردية فى هذا النشاط مايمكن ان يكون لها فى حجرة الدرس

هذا ماتستطيع المدرسة فى بلادنا ان تقوم به لخير الجماعة المصرية فلا يجوز ان تكون غايتها اعداد الطلبة للحصول على الشهادات والنجاح فى الامتحانات فقط . بل من وظيفتها أيضا ان تساعد على أن تجعل الطلبة اجتماعيين فى ميولهم وتستطيع ان تفعل ذلك عن طريق الالعاب الرياضية لابل نشعر أننا لانعدو الصواب اذ نقول ان الالعاب هى السبيل المحقق الذى تستطيع ان تصل منه المدرسة الى أخلاق الصبيان . لقد قلنا فى كتابنا « التربية والاخلاق » أنه ليس اعود على أخلاق الفرد وآدابه من ان ينشط فى سبيل الجماعة ويعمل لها ويناضل عنها ويخدمها ويحدب عليها ، ذلك لأن الاخلاق فى الواقع ليست صفة من صفات النفس او عنصراً من عناصرها او جوهراً من كيانهـا ، انما هى ميول ومران ونوع من نشاط الكائن الذى يعيش فى وسط الجماعة . فاظهر مافى الاخلاق هو كونها نوعا من النشاط الاجتماعى

والمدرسة قادرة على التحكم فى البيئة بحيث تجعلها صالحة لمثل هذا النشاط وكل ما كان النشاط مع الجماعة أفلحت المدرسة فى اقتلاع بذور الفردية القبيحة التى نشكو منها فى بيئتنا المصرية ، فنحن نريد ان نحيا كجماعة وليس كافراد ، نريد

أن نحيا ككائن حى وليس كخلايا متفرقة ، والمدرسة كائن معنوى يستطيع الصبيان ان يحسوا بوجوده ، ويستجيبوا له متى دعا ، يجب ان يتعلم الصبى ان يحيا كعضو فى جماعة وليس كفرد مستقل عن أى جسم آخر ، والسبيل الى ذلك كما نرى هو الملعب الرياضى

وحبذا لو شجعت المدرسة التعاون بأنواعه — التعاون — فى انشاء النوادى المدرسية وفى ادارة الشركات الصغيرة تحت ملاحظة المدرسة ، لابل نود لو أخذت بسبل التعاون فى استذكار الدروس ، كأن يقسم الطلبة ماهو مطلوب منهم على أعضاء الفرقة فيقوم كل منهم بما يخصه لخير المجموع ، وهكذا الى كل أنواع النشاط الذى يتطلب مجهودا مشتركا من الجماعة . لأن كل هذه هى من الشرائط الضرورية للتربية الاخلاقية ولايمكن فى نفس الوقت ان تكون معطلة للتربية النظرية التى غرقنا فيها لذقوننا فى هذه البلاد

وقبل ان نترك هذا الموضوع تركا نهائياً يحسن بنا ان نعرج بكلمة على مسالة التعاون فى الدرس الذى يسميه علماء التربية المحدثين طريقة المشروع أو Project Method . ومحصل طريقة المشروع هذه هو أن الطلبة لايدرسون الموضوع سواء أكان جغرافيا أم حساب أم خلافه دراسة انفرادية يهتم كل فرد فيها بما لنفسه ، لايتكلف الطلبة فى مثل هذا النظام باستظهار الحقائق مستقلين بعضهم عن بعض . وانما يطرح الموضوع عليهم كجماعة تتعاون للوصول الى غاية مشتركة . فهو من هذه الوجهة بحث تقوم به جماعة وليس درساً يستظهره الافراد . وبمعنى آخر يكلف الطلبة فى مدارس أمريكا مثلا — وهذا مايحدث بالفعل — أن يدرسوا رحلة الطيار لندبرج من امريكا الى أوربا . فيتكفل بعضهم بدراسة النظم السياسية للدول التى مر بها لندبرج . ويضطلع البعض الآخر ببحث طرق المواصلات البرية والنهرية التى استخدمها هذا الطيار فى الاتصال من بلدة الى اخرى وهو

فى ضيافة الحكومات المختلفة . ويدرس بعضهم المواد التى استخدمت فى بناء هذه الطيارة . والبلاد التى صدرت هذه المواد . وقد يقوم فريق منهم بصنع أنموذج للطيارة . وبالاختصار لايفرغ الطلبة من دراسة هذه الرحلة قبل أن يكونوا قد علموا عن هذه الدول الشيء الكثير . وكل هذه المعلومات التى يجدها الطلبة مجتمعين تطرح أمام الفرقة للنقد والبحث والاصلاح . ويخرجون منها بنتيجة هى ملك للفرقة كلها وليست لفرد بذاته

ان وسائل التربية الاجتماعية متوافرة المدرسة فى بلادنا كما هى متوافرة لكل المدارس فى جميع أقطار الدنيا ، ولكنها مغفلة عندنا كل الاغفال الا فى القليل النادر بينما قد خطا غيرنا فى هذا المجال خطوات واسعة ، فليس الاختلاف بيننا وبين المدارس فى بلادنا قائما على نوع المواد بقدر ماهو قائم على مقدارها وطريقة تدريسها . ولولاان تصرف المدرسة فى بلادنا معطل لنمو الصبى الاخلاق والبدنى لما أولينا المسألة شيئاً من الاهتمام

٣ — التربية المنزلية

تتناول التربية المنزلية جميع النواحى الاخلاقية للطفل ، فلا يمكن ان يعفى البيت من أى أمر فى هذه التربية . لأن كل نواحى الحياة الانسانية هى من أخص وظائف الأسرة ، فانت تستطيع ان تجد حداً لوظيفة المدرسة ، وتستطيع ان تجد مبرراً من الأمور النظرية لان تدافع عن المدرسة أو الجماعة أياً كانت ، تستطيع أن تدفع بأن هذه الوظيفة أو تلك ليست من خصائص معاهد التربية ، ولكن الحال بخلاف هذا مع العائلة ، لان كل مايمس حياة الافراد هو من أخص وظائف العائلة . والعائلة مطالبة بالقيام على شئون الطفل جميعها ، ولا نستثنى من ذلك شيئاً

فى استطاعة العائلة ان تفعل الاعاجيب فى حياة الاطفال ، لانها تستطيع ان تخلق الافراد خلقاً ، وهى فى الواقع تفعل ذلك وسواء أكانت تريد ذلك أم

لاتزيده . فهى تتحكم فى اقدار الاطفال ، تفعل ذلك ثم تلوم الطبيعة على نقائص الاطفال . والحقيقة ان الطبيعة بريئة فى معظم الحالات ، لان الارجح أن الافراد يصطنعون ولا يخلقون

ويعود اللوم فى مسألة الفردية خاصة على العائلة ، لانها إذا كانت قد فشلت فى ان تجعل الطفل اجتماعياً فى ميوله ونشاطه فمن يستطيع ذلك ؟ هل تستطيع ذلك الجماعة البشرية الكبرى وهى لاتملك الوسائل الفعالة التى تساعدها على ذلك؟ هل تستطيعه تلك الجماعة وهى عاجزة عن ان تفعل شيئاً سوى ان تكره الفردى وتعاقبه وان تحب الاجتماعى وتكافئه ؟ فالفرد يدخل فى زمرة الجماعة بميول واتجاهات فكرية ثابتة لاينفع فيها العقاب أو الثواب . وبعد فالجماعات ماتزال تتبع الغريزة والعاطفة فى معاملتها للافراد ، فهى اما تكره الفرد أو تحبه ، وكفى

ولكن للعائلة حكما آخر ، فهى لايخطر لها أن تكره الطفل بأى حال من الحالات ، لابل هى تنتظر من الطفل أن يخطىء وتعالج خطاءه بصبر وأناة وعقل ومحبة ، ثم هى متسامحة مع الطفل لاتحقد عليه لاية هفوة لان أقداره بين يديها وتستطيع ان تصطنع منه شخصية كبيرة . وأما الجماعة فتنتظر من كل من يهبط عليها ان يكون مستوفياً لنموه . فلا تشعر أنها مطالبة لأن تستكمل نمو الافراد ، وفرق كبير بين الحالتين

يجب ان تكون العائلة مستنيرة متعلمة حتى تستطيع ان تكون الافراد والشخصيات ، وفى امكان العائلة المستنيرة ان تتناول استعدادات الفرد الطبيعية بالتعديل والتهذيب حتى تصطنع منه انسانا من خيرة الناس ، وذلك بوضع الطفل فى الظروف التى تستدعى منه ان يفعل وينشط وان يكون من شأن عمله ونشاطه أن يؤدى الى خدمة الجماعة . فمن طبيعة الطفل ان يتحرك وينشط ويعمل ، أى أن الطبيعة ذاتها تتطلب منه ذلك ، فعلى العائلة اذن ان تسهل له السبل وترتب له

الامور حتى يكون ذلك النشاط مسدداً الى غاية اجتماعية

لاشك فى ان اللعب هو من أهم ظواهر الطفولة . فلو كان فى استطاعة العائلة ان تسدد هذا النوع من النشاط إلى غايات معينة لخدمت الطفل خدمة لاتقدر ، اذ بذلك تزيده رغبة فى هذا النوع من النشاط ، لانه إذا كان الطفل بطبعه يرغب فيه حتى وان كان لايرمى الى غاية معينة ، فكم تكون رغبته وشوقه اليه كبيرين إذا كانت له نتيجة تعود على عائلته واخوته فى البيت .

ولتوضيح هذا نضرب مثلا ، من عادة الاطفال انهم يقلدون والديهم ، فاذا كان الأب يحترف حرفة معينة ويزاولها فى المنزل نجد ان الطفل فى ألعابه يحاول محاكاة والده فينشط فى اللعب مثلما ينشط أبوه فى العمل ، ويتخذ الحالات والأوضاع التى يتخذها أبوه : فكم يكون سرور الطفل عظيما وكم يعود عليـــه من الفوائد لو سمح له أبوه فعلا بأن يساعده فى أعماله بشرط أن لا يرهقه ارهاقا كبيراً ولا يحمله فوق مايستطيع ان يتحمل ؟

والطفلة فى المنزل تقلد أمها فى عمل القهوة والشاى والمرطبات . وتقلدها أيضاً فى تقديم هذه للضيوف . مع فرق بسيط وهو أن ضيوف الطفلة لايوجدون إلا فى مخيلتها ، وليس هذا فقط بل تقلدها أيضاً فى غسل الملابس ولبها وفى تنظيف الصحاف وفى ترتيب الأثاث وفى الطبخ والعناية بالأطفال ، وهكذا الى أمثال هذه الامور التى لاتنتهى عند حد

فلو كان للعائلة من الملكات العقلية وحسن السياسة والنفاذ الى بواطن الأمور مايساعدها على استثمار هذه الميول فى الاطفال ، لكانت خدماتها لهم أكثر مما يظن الوالدون ، لأن اشتراك العائلة كلها فى عمل واحد ولغاية معينة واحدة مما يساعد على ايجاد الميول الاجتماعية الايجابية فى الاطفال . وغير ذلك ان هذا الاشتراك فى العمل هو مما يؤكد وحدة العائلة ويساعدها على التعاون فى قضاء مصالحها المشتركة

والاطفال فى الواقع يسرون عندما يشعرون انهم يخدمون عائلاتهم ، فكما ان الطفل يسر ويفرح للخدمات التى تؤديها العائلة له ، كذلك هو يسر ويفرح أيضاً عند مايشعر أنه يخدم عائلته ، وخصوصاً متى علم ان خدماته لها كانت من الاهمية بمكان عظيم وانها من أسباب تقدم العائلة ورفاهيتها ، ومجلبة لسرور الاب والام وراحتهماواقرارهما بالجميل للطفل . ولقد عرف المؤلف شابالايعمل شيئا من دون ان تساعده طفلته التى لاتتجاوز الحولين ، فهى تساعده فى ارتداء ملابسه صباحا ، وتحمل له الحذاء واحدة واحدة ثم الجوارب ثم كل ما تستطيع الوصول اليه من الملابس والاشياء

وثمة مكان آخر من البيت حيث تستطيع العائلة كلها ان تتعاون ، وهذا المكان هو المطبخ ، ففى هذا المكان يستطيع ان يتكاتف الجميع على القيام بمطالب العائلة كلها من طبخ وترتيب المائدة وغسل الاوعية ، وعلى الوالدين ان يجربوا هذه الطريقة وانا الكفيل بأن الأطفال يسرون لمعاونة العائلة فى أعمالها ، فليدخل الاب والام سوية الى المطبخ ويشتغلان فى تنظيف الأوعية ، وسوف يريان ان الاطفال يصرون على معاونتهما فى هذا العمل معاونة فعالة ومنتجة ، وسوف يرون أن تلك المعاونة تلقائية بدافع من اللذة والشوق

وفرق بين ان يتعاون الاطفال مع والديهم وبين أن يسخروا لأداء الواجبات التى لايريد الوالدون ان يفعلوها بأنفسهم . فرق كبير بين ان يكون الاطفال عبيداً أرقاء وبين ان يكونوا شركاء والديهم فى مسئوليات الحياة . ويحسن بالوالدين أن يتنبهوا لهـــذا الفرق ، لان فى التعاون عنصرا ضرورياً لكيانه لايوجد فى النوع الآخر من الخدمات ، وهذا العنصر هو اللعب ، فالعائلة التى يتعاون افرادها تشبه فرقة رياضية تتكاتف لاحراز الفوز وبلوغ الغاية ، وهذا مايسميه الانجليز فى لغتهم القيام بشروط اللعبة Playing The Game أما اذ لم يقم الافرادبقسطهم

فى هذا العمل يكونون ناكصين على أعقابهم مهزومين Not playiug The Game

فالأطفال بطبيعتهم يرغبون فى التعاون مع العائلة وعلى البالغين ان يتعاونوا معهم حتى تصير العائلة وحدة اجتماعية ديموقراطية حقاً ، أما اذا لم يفعلوا فانهم يكونون بيروقراطيين ، وفى النظم البيروقراطية تقوم الاغلبية على خدمة الاقلية ولست أريد ان أوغل فى شرح اضرار النظام البروقراطى فى العائلة . إذ يكفى ان نقول فيه أنه رق وسخرة وليس تعاوناً وتكاتفاً

إذا سارت العائلة على نظام التعاون بين افرادها كبارا وصغارا فليس يعقل ان ينشأ أطفالها فرديين لابل سوف تزول آثار هذه الفردية الممقوتة التى تعرقل سير الجماعات عندنا . ففى طبيعة الاشياء ان الفردية لا تستقيم والنظام التعاونى فى أى مجتمع ، وحيث وجد أحدهما لابد وان لايوجد الآخر ، والعائلة هى الركن المكين لأحدهما ، فهى التى توجه ميول الطفل الى هذه الناحية أو الى تلك ، وعلى الجهة التى تستطيع ان توجه الطفل اليها يتوقف مصير الطفل نفسه أولا وجزء كبير من سعادة العائلة ثانياً ثم عليها أيضاً تتوقف سلامة الجماعة العامة أخيرا

والآن بعد ان فرغنا من بحث الفردية نعود الى ما كنا فيه فنورد بعض الحالات الاخرى التى اعترضت المؤلف فى سيره ، وسوف يدل على نوع العلاج الذى استخدمه فى تطهير نفوس الصبيان من أثر هذه النقيصة ، ليس هذا فقط ولكنه سوف يكون علمياً فى طريقة ايراده لهذه الحالات ، فان يتستر على الفشل اذا كان قد اصاب علاجه فى بعض الحالات ، لأن الغرض من هذا الكتاب هو الخدمة والمنفعة العامة ، وليس غرضه تبرير وجهة نظر معينة

الفصل الثالث

مزاج طارىء

من عادتنا فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ان نقيم حفلة ايناس فى كل اسبوع تقريباً يشترك فيها أكبر عدد ممكن من الصبيان . ولا نسمح لهم أن يلعبوا كافراد بل نحضهم على أن ينضموا للجماعة ويشتركوا معها فى ألعابها

حدث أننا كنا نلعب هكذا . وكان ثمة كرة متروكة فى الملعب . وإذا باحد الصبيان يتركنا ليلعب بها بمفرده من غير ان يلاحظ شعور الجماعة وكان الصبى نفسه يحب ان يلعب معها لأن العابها كانت لذيذة حقاً . ولكنه فردى ، يحب نفسه ويحتقر الجماعة نوعا . فتدفعه فرديته ليلعب بمفرده ويهمل الشلة . وتجذبه ضحكات الجماعة وقهقهاتها فيرجع ليرى ماهى فاعلة . طلبه الصبيان ليلعب معهم فرفض ليس لسبب إلا لأنه يريد ان يشذ عن الجماعة ، يريد ان يقاومها حباً فى المقاومة لاغير وهذا روح ردىء . يضر بالصبى ضرراً بليغاً ويزيده امعاناً فى الاستهتار بالهيئة التى ينتمى اليها

ومن واجبى كمرب ان أنتزع مثل هذه الفردية البغيضة بكل الطرق الممكنة ، أما إن لم أفعل هذا فقد فشلت فيما أنا آخذ فيه

طلبت اليه ان ينضم اليهم ليلعب معهم . فاعتذر بمرضه وضعفه وأنه لايستطيع ان يلعب بل يحب ان يجلس ويراقب ، وهذه فردية لاغش فيها ، لأن ماتفعله الجماعة لم يكن أشق مما كان يفعله هو ، هم وقوف يراقبون ويضحكون ، أو يشتركون فى الحركات البسيطة المضحكة التى كانت تتطلبها اللعبة . أما هو فقد كان يقفز ويجرى وراء الكرة ويقذف بها الى المرمى كل هذا سهل عليه مادام

يلعب بمفرده . واما اذا كانت تريد منه الجماعة ان يشترك معها فهو مريض وضعيف ولا يستطيع الحركة

هذه هى الفردية بعينها تلك الفردية التى تقتل كل نزعة اجتماعيـــة فى البيئة المصرية . وهذه النزعة بالذات هى مايجب ان تقاوم بكل الطرق المنظمة . لأن الاستهانة بالجماعة حباً فى الاستهانة بها شىء كريه بغيض وهو كالسوس ينخر فى عظام الجماعة كلها ويزيد الافراد جراءة عليها فلا يعودون يقيمون لها وزنا

ولم أر هذا الصبى لمدة خمسة أيام بعد ذلك لأنه على مايظهر شعر أنه أتى أمراً منكرا فلم يعد يستطيع مواجهتى . فانقطع عن الحضور لقسم الصبيان طول هذه المدة مع ان من عادته ان يمر كل يوم ليلعب بعض الساعة ثم يذهب الى بيته للدرس والمطالعة

وقبل ان ابين ماتبعته معه ومافعل هو بعد ذلك يحسن بى ان أقول كلمة عن ذلك الصبى لأن له حالة خاصة يجب ان نوضحها بعض الشىء

هذا الصبى حسن البزة والهندام . مقبول شكلا فى مجموعه . وقد كان الأول فى فرقته فى المدرسة التى كان يتعلم فيها . ثم كان متفوقا فى الالعاب الكثيرة فى قسم الصبيان وقد أتى عليه يوم كان فيه بطـــلا للعبة كرة الطاولة (بنج بونج) لكل جمعية الشبان المسيحية بقسميها للرجال والصبيان واذا كان القارىء يعلم ان الجمعية تضم حوالى ألف عضو من الرجال والصبيان . فقد يعلم مبلغ تفوق هذا الصبى فى تلك اللعبة . ثم كان متفوقا أيضاً فى الالعاب الكثيرة مثل التنس الصغير والكرة الطائرة والكارومز والكروكية . علاوة على أنه كان رئيس فرقة كرة السلة فى قسم الصبيان . وأكثر من ذلك فانه قد نال معظم الجوائز التى قدمتها المباريات العامة

يصعب جداً مع صبى هذه حاله ان لايأخذه الغرور ويشعر أنه افضل ممن عداه ، لانه يندر ان تجتمع كل هذه المميزات لصبى واحد . ولكنها اجتمعت

كلها له . فلا يعجب الانسان فى الواقع للادعاء والغرور أن يتسربا لنفس هذا الصبى . ولكن الادعاء والغرور عارضان سوف يفسدان عليه حياته ان لم يجد من ينقذه منهما بطريقة من الطرق ، ولست فى الحق اقسو عليه لانى أحبه وأفتخر به وأعجب لكل هذه الميزات التى امتاز بها عن جميع الأعضاء من قسم الصبيان . لست اقسو عليه اذن لانى أعلم مايتعرض له أى فرد آخر فى مثل حالته ، ولكن هذا لم يكن ليثنينى عن ان احاول معالجته بكل طرق التربية التى أعرفها

ولنرجع الآن الى ماتم فى أمره . فانه حضر بعد غياب خمسة أيام متوالية ، ولما رآنى عن بعد حيانى بحرارة فرددت تحيته بحرارة أيضاً . ولكنى لم أفعل أكثر من ذلك . ولم افاتحه فى الموضوع مطلقاً فى هذا اليوم ، بل انتظرت لارى مايكون من أمره وبينما كنت واقفاً أتحدث مع أحد الصبيان تقدم الى هو ورجانى أن أحضر لعبتهم فى كرة السلة قائلا « يعقوب افتدى هلم وانظر كيف نلعب بروح رياضية حسنة وكيف أننا نخضع لأوامر الحكم من غير تذمر . هلم لتريك كيف نلعب على مقتضى قواعد الاخلاق » فاظهرت استحسانى لهذا وجلست على مقاعد الملعب الرياضى أراقبهم

ويحسن ان انبه هنا الى ان الحكم الذى اختاروه للقيام على شئون اللاعبين فى هذا اليوم هو صبى يفهم قواعد اللعبة . وكان أصغرهم سناً وجسما . ولكنهم لعبوا كرجال حقاً فلم يتذمر لاحكامه أحد مع انه كان يخطىء مثل باقى الحكمين الرياضيين ، ولكنهم كانوا يتقبلون أحكامه عن طيب خاطر ومن دون اعتراض وانتهت اللعبة على هذه الحال ، ولم أفاتح الصبى فى الموضوع

وفى اليوم التالى — أى بعد أربع وعشرين ساعة — كنت جالساً فى حديقة الجمعية فمر على هذا الصبى ودعوته الى الجلوس لنتحدث قليلا ، فجلس وطلبت له بعض المرطبات . ورجعنا الى موضوعنا الاصلى . فسألته لماذا كان فردياً بهذا

الشكل القبيح فى ذلك اليوم . وتحدثت اليه عن هذه الفردية واريته كيف انها من الخصال التى لاتتفق ومعيشة الانسان فى الجماعة . وبينت له وجه الفردية فى تصرفه هذا

ولست أعلم على التحقيق لماذا ذهب يقص على حياته كلها فى ذلك اليوم ، ولكن سواء أكانت الصدفة هى التى دفعته الى شرح مامر عليه فى يومه ذاك أم كان ذلك لداع آخر خلاف الصدفة . أقول سواء اكان هذا أم ذاك فقد كنت موفقا فى هذه اللحظة . فقادنا الحديث الى هذا الموضوع . لان معرفة مايحيط بالصبى من الظروف والبيئة والعوامل الأخرى من أهم الامور فى التربية الاخلاقية . ولا يستطيع المربى ان يكون ذا أثر فى مجرى حياة الصبى من دون ان يعرف مايحيط به ومن دون ان يعرف ظروفه الخاصة والعامة ماله علاقة مباشرة بحالته الخاصة وما ليس له علاقة مباشرة بتلك الحالة ، وهذا بالذات مايفعله أطباء النفس والعقل (Psychiatrists) عند مايزمعون معالجة حالة ما ، فانهم يشجعون المريض على ان يتحدث اليهم بما يجول فى خاطره مهما كان حتى وان لم يكن لهذا الحديث غاية معينة ، وفى اثناء الحديث يكتشفون علة المريض لان مايربك عقله ويثير منه الشجون والعواطف لابد وان يجد منفذاً من حديثه ، وبمعنى آخر لابد ان تظهر العلة الأصلية سواء أكان المريض يريد هذا أو لايريده

أقول ان الصدفة خدمتنى فى هذه الساعة فبسط الصبى لى حالته فى يومه كله ، والحق ان له العذر وان كان هو لايدرى ذلك ولا يشعر به ، واليك ماا كتشفته من العوامل التى قلبت مزاجه فى ذلك اليوم . قال : « نهضت فى يومى ذاك — وكان يوم الجمعة الطويلة — وذهبت الى الكنيسة الساعة الثامنة صباحا ، ومكثت هنالك الى الساعة الخامسة بعد الظهر احضر القداس والصلاة ، وكنت صائما طول يومى كالعادة عندنا فى العيد . وعند تمام الساعة الخامسة شربت خلا ممزوجا الى مر

على مثال مافعل المسيح عند صلبه ، وبعد ذلك رجعت الى البيت وافطرت ، ثم حضرت الى قسم الصبيان مباشرة .

هذا تاريخه فى ذلك اليوم ، والحق اقول انى لما سمعت به ثارت نفسى فى داخلى عطفاً على ذلك الصبى ، والتمست له كل الاعذار فيما فعله وفيما أظهره من الفردية الممقوتة . الحق انى اعجب جداً لحالة عائلاتنا ، كيف أنها تسمح لصبى مثل هذا فى الثانية عشرة من عمره ان يصوم اليوم كله — يصوم على الطوى — ثم يفطر على خل ومر ! لست أرغب فى المجادلات الدينية ، فليس لها موضع فى هذا الكتاب . ثم لست اسمح لنفسى ان تقوم مقام أرباب الدين فى هذه المواضيع ، لست أسمح لها أن تدعو الى هذا النوع من الصوم أو الى ذاك ، ولكن لايسعنى هنا بصفتى من المهتمين بالصبيان الا ان اعترض على هـــذا الأمر ، اذ ليس من المستطاع أن يعامل الصبيان على هذا المنوال من غير أن يكون لذلك أثر سيء فى أبدانهم وأمزجتهم ، وقد يدوم هذا الأثر السيء وقد لايدوم ولكنه مع مايتراكم عليه من الاخطاء الاخرى التى تقترفها عائلاتنا فى تربية الاطفال لابد ان يكون له اضرار باقية

عندما علمت بذلك اشفقت عليه وأخذت غلطته تصغر فى نظرى وتقل اهميتها وكدت انهى الحديث عند هذا الحد . ولكنى قلت له على سبيل المزاح أنه يحسن به أن يختار لنفسه عقاباً يتناسب مع فرديته التى ظهر بها فقال « اطردنى من النادى شهرين » فقلت هذا عقاب شديد جداً ولا يجوز ان يوقع على هفوة صغيرة كهذه ، فقال « اطردنى ثلاثة أشهر » ولاحظت أن نفسه ثائرة فى داخله وأنه يتحدث وهو مدفوع بعواطف حادة تجيش فى صدره ، ولم أدر لذلك سبباً ولكنى شعرت أن المسألة لا يمكن أن تنتهى وهو فى هذه الحالة . لابل قد تتطور المسألة وتتعقد الامور ، وقد يبدر منه وهو فى هـذه الحالة ما قد يضطرنى لأن

اعاقبه عقاباً شديداً لا يتفق وذنبه . وعد فليس هـــذا هو الظرف الموافق (Pschological Moment)وليست تنفع المعالجة فى هذه الحالة . فصرفته على أن يمر بمكتبى عندما يزمع الذهاب الى البيت

فذهب وانضم الى رفقائه ولعب معهم كرة السلة واغتسل فى الدوش البارد . ثم عرج على مكتبى يسألنى هل أريد أن اتحدث اليه بشىء. فدعوته وجلسنا نتحدث ورجعنا الى ما كنا فيه . وبسطت له الامر واظهرت تعجبى لتطور المسألة الى هذا الحد وأنه عندما حكم على نفسه بالطرد شهرين أو ثلاثة لم يكن يراعى العدل مع نفسه بل كان يتحدث بشكل ينم على ثورة فى نفسه . وقلت له انى فى جهل تام بمنشأ تلك الثورة .ثم اظهرت استعدادى لمساعدته فى حالته هذه وطلبت اليه أن يتحدث الى بصراحة

وخرجنا بنتيجة لم تكن متوقعة بالمرة — خرجنا من هـذه الحالة مقتنعاً انى أنا ايضاً ملوم . وانى لم أكن متنبهاً الى واجبى واليك التفصيل

كان قد حدث منه حادث مثل هذا لا اذكره . وكنت قد افهمته غلطته هـذه واظهرت استعدادى لمسامحته فيها . ثم قلت له انى لا اكره من الصبى أن يخطىء لأن هذا من حقه ، ولأن الاخطاء ليست مما يستدعى المداراة أو المكابرة — بل تستدعى العدل والقصد فى تقليلها على كل وجوهها ، وانى فى مركزى هذا مستعد لمساعدة الصبيان فى التخلص من هـذه النقائص . ثم قلت له أنه عندما يرتكب هفوة مثل هذه عليه أن يجول بعينيه فى الجماعة ليرى أين أنا ، وانه سيرانى اضحك لغلطته . فان شعر انه مخطىء حقاً فليضحك هو ايضاً ! وأما أن شعر أنه لم يخطىء فليأت الى مكتبى ليقول لى أنه لم يخطىء وأنه يستطيع أن يبرر تصرفه

كنا قد اتفقنا على هذا ، وكنت قد نسيته ، فلما ظهرت فرديته فى هـذه المرة غضبت أنا ولم اعطف عليه فى غلطته ، بل ظهرت بمظهر القاضى الذى لا يهتم بظروف الجانى ، ولا يحد له من ظروفه وحالته النفسية مايشفع فى ذنبه : فلما رأى منى هذا

تألم : وظنني حقدت عليه وانوى أن انزل به عقاباً صارماً

وقر هذا فى نفسه أن خطأ أو صواباً : فتوترت أعصابه ووطن النفس على استقبال العقاب ايا كان : فلما ذكر الشهرين والثلاثة كان يحاول أن يترجم عما شعر أنه يدور فى قرارة نفسى انا

وأما من حيث الغلطة نفسها فقد شعر بها وعبر عن شعوره هذا بقوله أنه كان يجب عليه من أول الامر أن ينضم الى الجماعة فى العابها : وانه لم يستطع أن يجد مبررا لتصرفه : فهى غلطة على أى حال : ولا يدرى لها سببا

بعد ان وصلنا الى هذا الحد لم يبق أمامى الا أن اعتذر عن نسيانى لوعدى السابق : وعاتبته لأنه لم يكن صريحاً ولم يذكرنى بوعدى ويعتذر عن فرديته التى ظهر بها أمام رفقائه

وانتهينا من كل هذا على انه سوف يحاول أن ينقد نفسه بنفسه فان اخطأ فى حق رفقائه سوف يأتى من تلقاء نفسه ويدل على اخطائه كى أعلم أنه لنفسه بالمرصاد يحاسبها على هفواتها حتى تنمو وتسمو وتستطيع أن تحقق مثلها العليا

وافترقنا على هذا التفاهم المتبادل ولست ازعم أن هذا الصبى قد تخلص من فرديته وصار اجتماعياً . كلا . ولكنه شعر أنه اخطأ فى حق اخوانه فى هذه الحالة بذاتها وأنه سوف يحاول أن يصلح من شأنه فى مستقبل الايام . ولست أشك فى أنه سوف يخطىء مرة ثانية وثالثة . ولكنى أعلم أيضاً انى لمثل هذه الغلطات بالمرصاد . وأنى سوف اسلك معه نفس الطريقة فلا اسمح للشخصيات أن تتسرب الى شئوننا فتفسدها

ولست اقتصر على الامور السلبية فقط . بل سوف أحاول أن اضعه فى ظروف تتطلب منه أن ينشط من أجل الجماعة التى ينتمى اليها وسبيلى الى ذلك الملعب الرياضى وحفلات الايناس وغيرها كثير

الفصل الرابع

مرض نفسي

من عادتنا فى الأجازات المدرسية ان نذهب الى رحلات كثيرة وان نصرف طول اليوم فى احداها . وفى الحق ان هذه الرحلات هى احدى السبل الفعالة فى اكتشاف بعض النقائص الاخلاقية فى الصبيان . تلك النقائص التى يصعب اكتشافها عن طريق آخر ، فلنا فى هذه الايام التى نقضيها مع بعضنا خارج المساكن وفى الخلاء فرصة ثمينة لمعالجة تلك النقائص ولايكون علاجنا لها بالوعظ أو بالكلام بل بتسديد نشاط الصبيان الى غاية معينة من غايات الاخلاق

وفى هذه الرحلات نأخذ غذاءنا معنا . فكل صبي مطالب بأن يحمل طعامه من منزله ، وفى عصر اليوم نعمل الشاى ونوزعه عليهم . ثم نوزع عليهم أيضاً بعض الحلوى وذلك فى مقابل بعض النقود التى يدفعها الصبيان لهذه الرحلات ، ففى رحلاتنا الى القناطر الخيرية مثلا نكلف كل صبي ان يدفع ستة غروش ، منها أربعة ونصف اجرة السكة الحديدية وقرش ونصف لتكاليف الشاى ومايتبعه

ففى ذات يوم أعلنت العزم على القيام برحلة الى القناطر الخيرية ، وطلبت الى من يريد من الصبيان ان يحضر من والديه قيمة الاشتراك فى هذه الرحلة ، وكان أول من دفع هذا المبلغ صبي لايتجاوز الثانية أو الثالثة عشرة من عمره وكان فردياً ممعنا فى فرديته . والظاهر أن من عادته التى درج عليها فى حياته الاولى أنه لايقيم وزنا لجماعة يوجد فيها ، وذلك ظاهر من تصرفه مع الصبيان ، لأن كل ماتريد الجماعة ان تفعله معيب فى نظره ويجب ان يستبدل بشيء يرتئيه هو ، والحق ان الجماعة لم تكن تحبه مطلقا ، بل كانت تتألم لتصرفه معها وتتنكر لميوله نحوها

ومن الغريب ان أباه زارنى مرة فى مكتبى وتحدث الى بشئونه ، وأظهر رغبته فى منعه عن غشيان قسم الصبيان بحجة ان المدارس توشك ان تبدأ الدراسات ، وأنه لايحسن بالصبى ان يلعب فى اثناء السنة المدرسية ، واللعب فى اثناء الدراسة مضيعة للوقت الى آخر هذه الأسباب ، وعبثا حاولت اقناع هذا الوالد بخطأ هذه النظرية وبحاجة الصبى الى اللعب المنظم فى اثناء الدراسة ايضا ثم قلت له ان لنا غرضا آخر بخلاف تقوية ابدان الصبيان فنحن نقوم على رعاية اخلاقهم واصلاح مايمكن اصلاحه منها . وان السبيل المؤكد الى الاخلاق هى الالعاب بأنواعها ، وخصوصا تلك الالعاب التى تتطلب الجماعات . فما كان من هذا الوالد إلا ان قال « أما من جهة اخلاق ابنى فلا تقل شيئا ، انى على يقين من متانة اخلاقه ، الحمد لله ابنى رضى الاخلاق » وقد كان ماأراد وانقطع الصبى عن قسم الصبيان الى وقت كتابة هذه السطور

ولنرجع الآن الى ماكنا فيه فنقول ان هذا الصبى كان أول من بادر بقيد اسمه لهذه الرحلة ودفع مصاريفها المعتادة ، وكان ذلك قبل موعدها ببضعة أيام وفى ذات يوم طرق هذا الصبى باب مكتبى وقال أنه يريد ان يتحدث الى قليلا فوضعت ماكنت أشتغل فيه للتو والساعة وأظهرت استعدادى وميلى للتحدث اليه لأن التحدث الى احد الصبيان فى نظرى أهم مما عداه من الاعمال ، ثم جلس فى مقعد أمامى ودار الحديث بيننا على هذا المنوال ، وكان هو البادىء

— ماهو موعد الرحلة ؟

— فى يوم كذا الساعة كذا ، ويحسن ان نجتمع كلنا فى هذا المكان ونذهب سوية الى المحطة

— ولكن أنا ساكن فى شبرا ، ولست أجد داعيا للحضور الى هذا المكان (والجمعية تبعد عن محطة السكة الحديدية بمسيرة ثلاث الى خمس دقائق)

— لك ذلك ان شئت ، ولكنى افضل ان نذهب جميعا من هنا . وعلى كل فالامر سيان عندى

ويلاحظ القارىء ان هذه احدى مظاهر الفردية فى هذا الصبى لأن من يقطنون شبرا كثيرون ، ولم يطلب احدهم مثل هذا الطلب ، فهم يفضلون ان يسيروا مع الجماعة ولكن هذا المظهر من مظاهر الفردية ليس ذا أثر كبير وشعرت أننى استطيع ان اتساهل فيه ، ولكنه عاد فقال

— حسن اذن فسآتى الى المحطة مباشرة

— أنت وماتريد

— وثمة شىء آخر أريد الاستفهام عنه ، وهو هل تصرح لى بأن أركب حماراً من محطة القناطر إلى حدائقها ؟

— أظن لايحسن بك ان تفعل هذا

— ولماذا لايحسن ذلك ؟

— لعدة أسباب ، منها انكم مضطرون فى حياتكم المدرسية لأن تجلسوا طوال يومكم الى أسابيع وشهور ، فلا يحسن فى مثل هذه الرحلة ان تهملوا رياضة أجسامكم ، أنه لافضل لكم فى مثل هذا اليوم أن تسيروا على الاقدام وتكدوا أجسادكم حتى تساعدوا الدورة الدموية على الانتظام

— معقول — واذن فستصرح لى بأن أركب فى العودة من الحدائق الى المحطة

— ولا أستطيع أن أصرح بذلك أيضاً ، فليس هذا فى امكان كل الصبيان من الوجهة الاقتصادية ، وأنا نفسى كنت أحب أن أركب عند العودة ، ولكن لان بيننا من لايستطيعون ان يصرفوا أكثر مما صرفوا ، لايحسن بنا ان نستمتع نحن ونترك الباقين يلعنون حظهم ويسخطون على الاقدار التى لم تسعفهم بالوسائل الاقتصادية كما اسعفتك واسعفتنى

— طيب وانا مالى بالبقية . نتركهم وشأنهم ، من استطاع منهم فليركب ومن لم يستطع ذلك فليمش

— كلا ، لابد ان نفعل مايفعلون من باب المجاملة والانسانية على أقل تقدير .

— اذن أركب أنا وحدى ، وتسير أنت مع من يسيرون

— لايجب ان يكون لك وحدك شأن غير شأن الجماعة كلها

— ولماذا ذلك ؟ أنا لاأرى الحكمة فى هذا

— هذا يقودنى الى السبب الثالث : وهو أنك ذاهب إلى القناطر مع جماعة ولست منفرداً ، فماتفعله الجماعة يجب أن تفعله أنت . فللجماعة روح ، ولها كرامة وعزة نفس : ولها أيضاً مطالب قبل الفرد . فيجب على الفرد أن يقوم بمطالب الجماعة كلها بفرح ورضى : فليس افعل فى نفوس الجماعات وادعى الى غضبها وسخطها من شذوذ الافراد ، ولا يحسن بك أن تشذ

— سأفعل ذلك اكراماً لك أنت وليس للجماعة

— كلا : يجب أن يكون ذلك من أجل اخوانك : لانه سيان عندى أن تركب حماراً أو سيارة أو طيارة

— سأفعل حسب ماتشير ، ولكنى ألاحظ ان المبلغ الذى حددته صغير جداً ، فماذا تستطيع أن تفعل بستة قروش وأجرة السكة الحديدية أكبر من ذلك ؟

— كلا ان اجرة السكة الحديدية أربعة قروش ونصف فقط

— إذن ستذهبون فى الدرجة الثالثة

— هو كذلك

— لا لالا . أنا لاأستطيع أن أذهب فى الدرجة الثالثة مطلقاً . هذا كثير على ، أرجو أن تصرح لى بأن أذهب فى الدرجة الثانية

— إنى آسف جداً ، لاأستطيع ذلك مطلقاً

ـ ولماذا ذلك إذا كان فى استطاعتى أن أدفع التكاليف؟

ـ ليست التكاليف هى أهم مافى الموضوع . وانما أهم مافيه على الاطلاق هو الجماعة . وانت لست تفضل أيا منهم : فكما تفعل الجماعة يجب ان تفعل انت أيضا من دون اعتراض أو تذمر

ـ وأنا مالى ومال الجماعة ؟

ـ إذن لماذا تريد ان تذهب معها ؟ لماذا لاتذهب فى يوم آخر ولماذا التحقت بهذا القسم أصلا ؟ أليس لأنك تريد ان تكون مع جماعة من سنك وبيئتك ؟ اذن يجب ان يكون حكمك حكمها : وما تقبله هى يجب أن تقبله أنت

ـ إذا كان الأمر كذلك فلن أذهب معها الى القناطر

ـ لك ذلك ان شئت وسأرد لك مادفعته

ـ طيب اسمح لى أن أسأل سؤالا آخر

ـ تفضل

ـ هل تصرح لى بأن حضر معى الشاى والحلوى من البيت ؟

ـ ولماذا ذلك ؟ سنقدم لكم الشاى والحلوى هناك

ـ أنا لاأحب الشاى الذى تصطنعون ؛ والحلوى التى تجلبون

ـ وما عليها ؟

ـ أنا لاأحبها والسلام

ـ حكمك فى ذلك أيضا كحكم الجماعة ؛ فما دامت الجماعة تريد أن تصطنع الشاى هناك فلا بد وان تشربه كما نشربه نحن

ـ وحتى هذا أيضا لاتصرح لى به ؟

ـ وحتى هذا لاأصرح لك به

ـ إذن فسامحنى إن لم أستطع الذهاب

— لم تخطئ في حق ؛ فلا داعي لأن تستسمحني : هاك مادفعت

للقارىء الحق في أن يعجب لهذه الحالة : لانها من أروع مامر علي في طبائع الصبيان : ولكني أصرح أن هذا الحديث يكاد يكون صورة طبق الأصل لما حدث : فلم أغال أو أبالغ مطلقا في تصوير هذه الحالة بذاتها ؛ لابل اكاد أقول أنها مقتضبة جداً ؛ لأن الحديث استغرق ساعتين بتمامهما من غير نقص أو زيادة

قارن هذا بما قاله الأب من ان أخلاق ابنه والحمد لله ليست في حاجة الى التقويم أو الاصلاح ، ثم أحكم بعد ذلك على معايير الاخلاق عندنا ؛ وهل هي شيء سلبي محض أم لها وجهات إيجابية لاتتم من دونها؟ الحق انى أشهد لهذا الصبي بالامانة مثلا ؛ وذلك لانه لم يسرق شيئاً مطلقا من جيوب أقرانه ؛ أو بالحرى لم يصل الى علمي شيء من هذا مطلقا ؛ ثم انى لم أسمع مرة أنه ارتكب احدى القبائح ؛ ولكن ما رويته هو احدى مظاهر حياته الاخلاقية ؛ فما حكم القارىء الآن ؟ هل الناحية السلبية من الاخلاق هي كل مافي الأمر؟ أم هل هناك أوجه ايجابية يجب توافرها في الفرد حتى نستطيع ان نقول انه على أخلاق متينة ؟

أما نحن فاننا نذهب الى ان الوجهات الايجابية في الاخلاق هي أهم مافيها ؛ وانه اذا لم تتوافر هذه فلا نستطيع ان نزعم ان اخلاق الانسان فاضلة ؛ فالاخلاق في رأينا نوعان وهي صالحة أو طالحة . أما انها محايدة فلا . لأن هذه لاطعم لها ولا لون ؛ حقا انها لاتفعل الشر ؛ ولكنها لاأثر لها في الخير أيضا ؛ ولا يصح ان نفهم من الاخلاق هذا فقط . أما لو فهمنا ذلك لجاز لنا ان نزعم أن للحيوان أو للأحجار اخلاقا

فالاخلاق اذن صالحة او طالحة . فان لم تكن أحد الامرين فهي الآخر بطبيعة الاشياء . والنقائص الاخلاقيـــة هي نقائص اخلاقية على أي حال سواء أكانت سالبة أو موجبة . وفي رأينا ان اخلاق الفرد رديئة اذا عمل الشر ، وهي

رديئة أيضاً إذا امتنع عن عمل الخير . ذلك هو ما نفهمه منها ، وهذه هى المعايير التى نقيسها بها . ولا نستنكف ان نغير أرائنا عند الاقتضاء.

وعلى هذا القياس فنحن نزعم ان أخلاق هذا الصبى الذى رويتا حالته فيما تقدم غير حسنة . فهو يحتاج الى الاصلاح والتعهد حتى يتخلص من داء الفردية الذى أخذ بنفسه بشكل قبيح . ونحب لو عاونتنا الآباء فى هذا . والحق ان كثيرين منهم قد عاونونا كما سنورد فى الصفحات التالية . أما فى هذه الحالة التى نحن فيها فلم نحصل على المعاونة التى كنا نستحقها فقد اضطره والده ان ينقطع عن قسم الصبيان ويكب على دروسه ، وعسى ان يكون قد نجح فى دروسه . وحقق أمل والده فيه

لم يذهب الصبى الى الرحلة كما تقدم . أو على الاصح لم يذهب معنا لأننا عندما وصلنا الى حدائق القناطر وجدناه هنالك وكان — حسب قوله — قد أتى على عجلة من القاهرة . ومن غريب الامور ان الصبيان لم يأبهوا له ولم يجتمعوا حواليه كما كان يظن . لا بل قابلوه مقابلة فاترة جدا . فما عتم ان انصرف الى حال سبيله . ولم نعد نراه فى يومنا هذا

وفى ثانى يوم حضر الى قسم الصبيان ورجانى ان لا أكون قد تأثرت من ذهابه الى القناطر بعد أن كان قد انسحب من الرحلة . فافهمته أنى لم أتأثر البتة لذلك . وانما كان تأثرى لأنه أراد ان يشذ عن الجماعة التى ينتمى اليها

وقد لاحظت عليه فى الايام التالية أنه لم يكن هادىء البال قرير النفس كما يجب . وأنه كان يسارع الى الاستماع الى كلامى وكان يبادر للاشتراك فى الحياة الاجتماعية فى القسم ، ومع أن فرديته كانت تظل تتطلب الظهور ، الا أنه كان يتغلب عليها فى كثير من المواضع . ولكنى لم استطع ان استقصى ابحاثى الى أكثر من هذا الموضع لأن المدارس فتحت أبوابها بعد ذلك بأيام قليلة وانقطع هو عن الحضور انقطاعا تاما

والنتيجة التى استخلصها من هذه الحالة بذاتها ، هى انى لم أصل الى نتيجة يصح السكوت عليها . فلم أعرف هل نجحت أم لم انجح ، واقصد بذلك نجاحاً نسبياً موضعياً . لأنه لا يمكن أن يكون العلاج شافياً مانعاً دفعة واحدة وكل مانعلمه من اصول التربية الحديثة أن النجاح لابد أن يكون نجاحا موضعياً وأنه على المربى أن يظل يعالج الحالة بذاتها كلما ظهرت . اقول انى فى هذه الحالة بذاتها لا استطيع أن ارقب تقدم الصبي . فانه قد انقطع وذهب الى سبيله ، فلم اعد اراه : ولم تتح لى الفرصة الكافية لدرس اخلاقه ومعالجته كما كنت أروم وابغى

الفصل الخامس

فردية قبيحة

كنا فى رحلة اخرى فى جبل المقطم . وزرنا الخرائب التى تقع بعدالقلعة مباشرة ولست أدرى ما هى هذه الخرائب أو من بناها ولماذا بنيت . ولكننا كنا نبغى المسير فى شمس الشتاء المشرقة . ولم يكن لنا قصد من السير فى صخور هذه الجهة الا أن نعطى فرصة للطلبة ليروحوا عن نفوسهم خارج المدينة ، لأنهم كما يعلم الجميع مطالبون بان يقضوا حياتهم المدرسية أشبه بالمسجونين منهم بأناس يعيشون ويحيون . وكان اليوم عطلة لبعض المدارس ويوم كهذا يحسن بالطلبة أن يقضوه فى الخلاء لغير غاية سوى اللعب والمراح والاستمتاع بالهواء الطلق

وفى هذه الرحلات احرص على تقوية روح الجماعة . فلا اسمح لفرد مهما كانت مؤهلاته أو مركزه أن يعبث بهذه الروح لأى سبب من الاسباب . فيجب أن يشعر أنه فى جماعة لها عليه حقوق الجماعات على الافراد . وكثيراً ما يكلفنى هذا اتعابا جمة ومشاكل عدة . فاضطر لأن اصرف كثيراً من وقتى مع الفرديين الذين لا يشعرون بحقوق الجماعة عليهم . ولكنى احرص ايضاً على أن لا آخذ هذه الساعات من وقت الجماعة . فمتى ظهرت فردية أحد الصبيان بشكل يكاد يعبث بحقوق الجماعة استعمل سلطتى الادبية فى معظم الاحوال وسلطتى المادية فى القليل الشاذ حتى احمل هذا الفرد عل الخضوع لجماعته فى هذا الظرف الذى نحن فيه ، ثم افهمه عند سنوح أول فرصة لماذا فعلت ذلك

وعند التحدث اضع نفسى مع الطالب على قدم المساواة . فلا يكون هنالك آمر ومأمور . أو رئيس ومرءوس . بل صديقان لكل منهما ما للآخر من حرية

القول والفكر وأن وجدت فى أثناء البحث انى اخطأت فى بعض الامور لا اتحرج أو استنكف عن أن اقر بهذا الخطأ للصبي واعتذر عنه واشرح وجهة نظرى كأنى فى مركز المتهم أمام القاضى واعطى الحق للصبى فى أن يبين لى انى اخطأت فى كذا أو قصرت فى كيت لأن له حق محاكمتى على مسلكى معه ، كما انى لى الحق فى محاسبته على تصرفه معى أو مع الجماعة التى ينتمى اليها . كل هذه القضايا مفروغ منها فيما بينى وبين الصبيان الذين فى عهدتى ، ولا احتاج لتذكيرهم بها الا فى القليل النادر

كنا عشرة فى ذلك اليوم على جبل المقطم ، وكان فى زمرتنا صبى يبلغ الخامسة عشرة ، وهو تقريباً أكبر الصبيان الذين كانوا معنا ، ولكنه كان مضروباً بداء بلادنا فكان فردياً متنطعاً فى فرديته بحيث أنه كان دائما يكتشف فى نفسه وعلى حين غرة ميولا لا تتفق مع ميول الجماعة ووجدت نفسى مضطراً فى أحوال كثيرة لأن استعمل فن الكلام أو المنطق حتى اقاوم فيه هذه النزعة . وكنت انجح فى كل الحالات التى عرضت لنا قبيل عودتنا

فمثلا كانت الجماعة تقف فى مفترق الطرق وتحاول أن تقرر أيها تتبع . وبالطبع لكل منهم الحرية فى أن يتقدم للجماعة بما يرتأيه ، وله ايضا أن يدافع عن رأيه ويحاول جذب الآخرين اليه . ولكن عندما تقرر اغلبيتهم الذهاب الى ناحية معينة على الافراد الباقين أن يخضعوا وينفذوا ما تريده . وانا بصفتى مسئولا عن الجماعة كلها اتكفل بمن يشذ منهم وافهمه أنه لا يليق به أن يشذ والا فانه لا يليق لشرف الوجود فى وسط جماعة من الجماعات . وكان صاحبنا من الشاذين . لا بل كان أولهم . فكل ما قررته الجماعة لا يحسن لديه ، وظل يحتج ويتذمر ويشكو من جهل الجماعة ومن خطائها ، فكنت اسأله لماذا يظن ان الجماعة مخطئة فكان يقول لأنها مخطئة ليس غير وكان افضل لنا أن نفعل ما انصح به ثم بعد ذلك نذهب فى طريق الجماعة . وهذا بالطبع لم يكن ليرضينى أو يقنعنى منه فكنت احمله على الخضوع حملا بطرق الاقناع والود

ولا يتبادرن الى ذهن القارىء أن الجماعة كانت مستبدة به بأى شكل من الاشكال . ذلك لأنى معها ولو فعلت شيئا من هذا لكنت اقف فى طريقها كما أقف فى طريق أى واحد من الفرديين . ولكى ابين للقارىء جوهر النزاع بين روح الجماعة وروح الفردية اضرب مثلا مما حدث ، أرادت الجماعة مثلا أن تذهب لترى مدفع الظهر عند تمام الساعة الثانية عشرة ، وعلى هذا فقد ارتأت أن تلعب بعض الشىء الى أن يحين الظهر فتذهب لترى المدفع عند انطلاقه . وهذا أمر معقول لا يسع الانسان العادى الا أن يخضع فيه لرأى الجماعة ، ولكن الفردية تعارض ليس لأن الجماعة مخطئة ولكن لأن الفردية فى الواقع متعنتة ومتعسفة ليس الا ، وعلى أى حال هذا ما ارادته الجماعة . وأما هذا الصبى فقد عارض فى ذلك قائلا أنه يحسن بنا كلنا أن نلعب لنرى المدفع . ثم نعود فنلعب . ثم نرجع عند الظهر لنراه ينطلق

رفضت الجماعة بالطبع أن تستمع لهذا الرأى ، وقررت أن تنفذ رأيها فاحتج وعزم أن ينفذ رأيه وبدع الجماعة وشأنها ، ولكنى اعترضته وافهمته أنه يحسن به أن يخضع . وبعد بحث بينى وبينه خضع . وهكذا كنت تلاحظ فرديته فى أمور كثيرة لا حصر لها ولا عدد . وكنت اضطر كثيراً لمقاومة هذه الفردية القبيحة التى صارت عنصراً من عناصر اخلاقنا حتى كادت تودى بالحياة الاجتماعية عندنا ، وكما قلت سابقا لم يكن ثمة سبب قوى أو شبه قوى لهذا الفردى أن يشذ لأنه لا معنى مثلا فى أن تخرج الجماعة كلها من باب ويخرج هو من باب آخر ، أو تذهب هى الى جناح من هذه الخرائب ويذهب هو الى جناح آخر

ليس لكل هذه التصرفات الا سبب واحد . وهو أن الفردية تثور على الجماعة ولا تحب أن تخضع لها ، ولا يختلف اثنان فى أن هذه الظاهرة مضرة أشد الضرر بالحياة الاجتماعية على العموم وبالتعاون الاجتماعى والاقتصادى على الخصوص

لأنه من شرط التعاون أن يكون حكم الفرد كحكم الجماعة على السواء

وعند هذه النقطة يحسن بنا ان نكرر شيئا قلناه فيما سبق . وذلك لكى ندفع خطأ قد يعلق بالاذهان . قد يتبادر الى ذهن بعض القراء خطأ ان هذا قتل للشخصية وليس للفردية ، ولكن شتان بين الاثنتين . وهذه الحالة من أجل الحالات فى تبيين الفرق بينهما . فالشخصية (Individuality) كانت تستطيع فى هذه الحالة أن تجذب الجماعة كلها الى الرأى الذى ترتأيه . وحينئذ لم يكن لى أنا إلا أن أقبل وأسر لأن الجماعة اتفقت على رأى واحد . وكان هذا أيضا يوفر على مجهوداً لاطائل تحته صرفته فى معالجة الصبى وأما الفردية Iudviidualism فحكمها بخلاف هذا الحكم . فهى بطبعها تعجز عن اكتساب الجماعة الى صفها . لأن من طبيعة الفردية أنها لاتعطف على الجماعة ولا تحبها . وهذه الظاهرة متبادلة بين الفردى والجماعـــة . فليس بينهما شىء مشترك سوى الصراع والنضال على الحياة نفسها . وانتصار روح الفردية هو فى الواقع فناء لروح الجماعة . والعكس صحيح . ومن ثم كان الاختلاف . وكان عجز الفردى عن أن يكتسب الجماعة الى صفه . وعندما يعجز عن هذا الغرض يحاول ان يفسد على الجماعة أمرها ويحاول ان يقل من عزمها ويثبط من همتها ، ووظيفة التربية اذن هو تعهد الشخصية بالرعاية والعناية حتى تبلغ اقصى ماتبلغ ، ثم وظيفتها ايضاً ان تقاوم الفردية حباً فى خير الجماعة

كنت اذن فى صراع مستمر مع هذه الفردية طوال ذلك اليوم ، وكان يشهد هذا الصراع زميل اوربى ملم بأصول التربية كنت قد دعوته للذهاب معنا وكان ذلك الصديق يعجب لهذه الفردية المتأصلة فى نفس هذا الصبى ، وأذكر أنه قال « إذا كانت هذه هى المادة الخام التى تصطنعون منها رجال مصر فلا عجب ان يفشل عندكم كل مشروع للتعاون لأن فرداً كهذا فى جماعة ضعيفة كالجماعات

المصرية كاف لأن يفسد أى مشروع ترمع الجماعة ان تضطلع به »

وانتهى يومنا على أى حال . فعزمنا على الاوبة ، ويممنا شطر القلعة من جبل المقطم . وما كدنا نبلغ القلعة حتى خطر فى بال هذا الصبى ان يزور جامع محمد على فعرضت على الصبيان اقتراحه . فكان جوابهم أنهم تعبوا فى يومهم هذا ، وأنهم يرغبون فى العودة فقال الصبى « كلا لاأريد أن أعود الآن . ولماذا نعود الآن ولنا متسع من الوقت بعد انى أريد أن أتفرج على الجامع . ولابد ان أذهب اليه منفردا أو مع الجماعة »

ووجدت نفسى مضطراً لأن أفعل أحد أمرين . أما أن أرغمه على العودة ارغاما وقد اضطر لأن أستعمل القوة المادية لهذا الغرض وهذا يحل معضلتى أنا ويريحنى من البحث الممل معه . والقوة فى هذه الحالة لايقصد بها خير الصبى بأى وجه من الوجوه . بل تعود على المربى فتريحه من الصبى العنيد وتحل معضلاته وتسهل له الامور . فلا يعود الصبى يشذ ليس عن اقتناع ولكن خوفا من المربى فكرت فى كل هذا وقررت فى نفسى ان لا ألجأ للقوة بأى حال من الاحوال لانى لست هنا لأحل مشاكلى أنا بل مشاكل من هم فى عهدتى من الصبيان

ولم يبق أمامى الا أن أتركه لنفسه وأرجع مع الجماعة . وهذا أيضا غير سليم العاقبة لأنه فى عهدتى ولا يصح ان أتركه وأنا مسئول عنه ، ولكنى تركته على أى حال لأنى شعرت أنه كبير السن . ويستطيع ان يعود وحده خصوصاً وأنه كان قد سبق لحضر بمفرده الى هذه الجهة ، وبعد فنحن فى القلعة ذاتها ، أى أننا فى القاهرة ، فلاخطر عليه فيما لو تركته . وزنت كل هذه الامور ، فوجدت أن الافضل ان أنفذ للجماعة ماتريد وان أرفض معاونة الفردية على تحقيق غاياتها والتحكم فى الجماعة ، لهذه الاسباب جميعاً قلت له « حسنا ، ابق أنت ، وأدخل الى الجامع . ثم ارجو أن تعود بعد قليل لأنى أريد أن اطمئن عليك »

فقال سمعا وطاعة ، وذهب ثم عدنا

ولم ينته عملي عند هذه النقطة ، لأنه لما عاد الى قسم الصبيان دعوته الى مكتبي وباحثته كثيراً فى تصرفه ، وأريته وجه الخطأ فى تصرفه وكيف ان تصرفه كان محقراً للجماعة كلها . فرأى غلطته ، واعتذر عنها ، ووعد ان لايعود الى مثلها مرة اخرى ، وخرج من مكتبي على أحسن حال شاعرا أني صديق له أعطف عليه وأحاول مساعدته فيما يعرض له من المشاكل

ولا يظنن القارىء أن معالجة الصبيان تنتهي عند هذا الحد أو أنها بهذه السهولة والبساطة ، كلا ، لان رعايتهم تتطلب من المربي ان يكون على استعداد لمعالجة نفس الحالة عند ماتظهر فى ثوب آخر أو تتشكل بشكل جديد ، فاخطاء الصبيان لايمكن أن تقتلع وتزال بعملية واحدة كعملية البتر . لانه يعدان يعالجها المربي علاجا ما ، تراها قد ظهرت بشكل آخر وتراها تتطلب علاجا آخر وقد تظهر مرة ثالثة ، فيجب أن يلجأ المربي لنوع آخر من العلاج . فالمسألة اذن ليست سهلة هينة . بل هي شاقة وتتطلب من الصبر والاناة والتفكير والروية مايعجز دونه كثيرون من الاباء والمربين . وكثيراً ماأوشك صبري ان ينفد وان يتملكني الغضب ولكني كنت أحاسب نفسي حسابا عسيراً على هذا ، ولذلك فاني استطيع أن أصرح بأن المربي يجب أن ينقد نفسه أكثر مما ينقد تصرفات الصبيان ، لان كثيراً من حالات الفشل يعود اللوم فيها على المربي أكثر منه على الصبي . لقد وجدت ذلك بالاختبار المستمر ، واني اقدمه للآباء والمربين ليجعلوه موضوعا لدراساتهم وابحاثهم ، ولا أظنني مبالغاً اذا قلت أن تسعة أعشار النقائص الاخلاقية فى أطفالنا منشؤها عجز الآباء والمربين عن أن يلتفتوا لنفوسهم ليصلحوا من شأنها أولا

ولنرجع الى ماكان من أمر هذا الصبي بعد ذلك ، مر على هذه الحادثة مايقرب من الخمسة الشهور أو يزيد . ولم ألاحظ منه إلا تقدما مستمراً محسوساً فى هذه

الناحية من الاخلاق . فسررت . ووطنت النفس على معاونته فى سيره فى طريق الروح الاجتماعية . وكنت أشعر أنه أقرب الى من قبل وانه أسرع الى فهم أغراضى وما أرمى اليه عما كان أولا . كانت كل هذه الظواهر تشجعنى كثيراً . وكانت حالته من الحالات التى تجعلنى أشعر أن حياتى مع هؤلاء الصبيان لايمكن ان تذهب عبثا . كل هذه كانت تجول فى نفسى . وكانت من العوامل المشجعة لى على استمرار فيما أنا آخذ فيه . ولكنى كنت فى الوقت ذاته موطنا نفسى على ان لاأمعن فى التفاؤل فليس يصح ان يكون التفاؤل حمقا ولذلك كنت أحذر نفسى وأذكرها بمبدأى فى الفلسفة وهو ماأدعوه التفاؤل المستنير Moral Or Critical Optimism لان هذا الضرب من التفاؤل هو فى نظرى مايجدر بالمستنيرين والمفكرين . وبناء على هذا كنت ارقب التطورات فى نفس هذا الصبى

ولى فى هذا القسم مساعد شاب فى نحو العشرين من عمره ممتلىء قوة ونشاطا وعطفا على الصبيان وحبا لهم . وهو يعاونى معاونة جدية فى هذا العمل . واستطيع أن أركن اليه فى كثير من الحالات . ونحن دائما على اتصال وفى بحث وتفكير فيما يعود على الصبيان من كل وجه وعلى أخلاقهم خاصة

دخل هذا المساعد يوما الى مكتبى وقال لى أنه غير مرتاح لتصرف هذا الصبى بذاته . فسألته وما شأنه ؟ فقال انه يدخل الى قسم الصبيان بشكل يدل على التسلط ، ويتكلم بشكل لايدل على الاحترام الواجب لى بصفتى أكبر منه . فمثلا يحضر ويطلب الى فى خشونة أن أعطيه بعض الالعاب . ولا يتلطف فى الحديث معى كعادة الصبيان جميعا . وكأنه يريد بتصرفه هذا ان يستلفت نظرى فيقبض على الكرسى ويرفعه ثم يرمى به الى أقصى ماتصل يده . ولما لفت نظره الى ان هذا لايليق ، قال « أنا حر افعل ماأريد » وكل هذه التصرفات ليست مما يطاق » فشكرت الافندى على هذه المعلومات ورجوته بأن يعتصم بالصبر الى ان تواتينى الفرصة فأرى ماشأن الصبى فى هذا التصرف

ولم أكلمه مطلقا فى هذا الأمر ، ولكنى أمسكت به متلبسا بتصرف من هذا القبيل . وذلك انه حضر فى ليلة وذهب توآ الى المكتبة ليطلع على بعض المجلات ، وجلس الى المنضدة وخلع طربوشه ثم قذف به عدة أقدام إلى خادم القسم وقال له « ضع هذا فى مكان » ففعل ذلك وهو يضحك ، كأنه يهزل بتصرفه هذا ولا يجد . وذهبت الى الخادم وتناولت منه الطربوش وقذفت به اليه وانا أضحك أيضا وقلت له « إن الخادم يرفض ان يستمع اليك بهذه الطريقة » فقام وذهب الى الخادم وناوله الطربوش وقال له « من فضلك ضع هذا فى المكان المخصص له » ففعل الخادم وانتهت المسألة عند هذا الحد

ومع كل ذلك فانى كنت أشعر أنه فى تحسن مستمر من الناحية الاخلاقية . فلم تكن فرديته لتظهر بالشكل الذى كانت تظهر به أولا

ولكن حدث فى يوم من الايام حادث دهشت له وحرت فى أمره . ذلك أن هذا الصبى أخذ يتمرد ويعصى وتثور فيه نفسه كأنه يريد أن يؤكد شخصيته تأكيداً باتا قاطعا ، وهذا ان لم يكن فى نظرى مظهراً من مظاهر الفردية فهو على الأقل ادعاء وغرور ينجم فى أحوال كثيرة من المراهقة . ومظهر هذا الغرور هو أن يشعر الفرد أنه انسان كبير له خطر وله قيمة . وأن الناس فى الواقع لا يقدرون هذا الخطر وهذه القيمة . ولهذا السبب يريد ان يعلم الناس كيف يحترمونه ، وينظرون اليه نظرة التقدير والاعتبار . ومن مظاهر المراهقة هذه أن يصير الصبى شديد الغيرة على كرامته المزعومة . ويحمل كل الافعال التى يأتيها الآخرون على محمل الحط من كرامته والزراية به ويرى ان كل كلام لا يفهمه محقر له . وكل حركة لا يدرك الباعث عليها موجهة اليه للاستهانة به

ونحن لا نريد فى هذا المقام ان نستقصى عوارض المراهقة من الوجهة النفسية ، ذلك لأن لهذا الكتاب حجما لا يحسن ان يتعداه . أما إذا وجدنا أن المجال

يسع شيئا عنها فسوف نتحدث فيها ، ونبسطها للقراء بعض البسط ، فلنرجىء هذه اذن ونسترسل فى موضوعنا

من عادتنا فى قسم الصبيان أن نقيم بعض حفلات الايناس كما مر بك ، ولكنى درجت على عادة قصدت بها شرح مايعترض الجماعة من تصرفات الافراد فاذا كان قد ظهر من أحدهم روح الفردية القبيحة فى أثناء الحفلة مثلا أكلمهم قليلا عن هذه الفردية . وأظهرهم على قبحها وشناعتها . ولكنى أحرص الحرص كله على ان لاأدخل فى الشخصيات فلا أذكر ولو على سبيل التمثيل ماحدث من أحدهم ، وخصوصا متى كان الحادث قريبا للافهام ، لانه متى كان الأمر كذلك لابد أن ذكره يجرح احساس الصبى وهذا ماأتحاشاه وأتجنبه ، فللصبيان كرامة . ولهم عزة نفس ، ويجب على المربى أن يحرص على أن يقوى فيهم هذا الشعور ويتعهده بالرعاية حتى اذا ماصاروا رجالا يستطيعون أن يدافعوا عن كرامة نفوسهم

كل هذا اضعه أمامى ، ولا اسمح لنفسى أن تنساه لحظة واحدة ولكنى لااسمح للصبيان بالمكابرة ايضا فمادام أن أحدهم اخطأ فى ناحية من النواحى ، واقر بخطأه واستسمح الغير عن هذه الاخطاء . فليس للصبى أو لأى انسان آخر أن يعود فيكابر فى هذا الشعور وذلك الاقرار . لأنه يجب أن يكون الشعور بالخطاء شعوراً صادقا لالف فيه ولا دوران

فبعد أن استمتعنا بحفلة الايناس هذه ، أخذت اتحدث للصبيان عن الفردية البغيضة وابين لهم لماذا لا تتفق والحياة الاجتماعية الصحيحة ، ثم قلت لهم ، أن الخطأ من مميزات الحياة الانسانية . فلكل منا كباراً أو صغاراً حق الوقوع فى الخطأ ولكن ما يميز فرداً عن آخر ، وما يرفع خلقا عن آخر ، هو أن الخلق المتين يرى الخطأ الذى وقع فيه ، ويستقرىء من الحوادث الملازمة له لماذا وقع فيه ، ثم يحترس لنفسه لكى لا يقع فيه مرة أخرى ، أما اذا وقع فى نفس الهفوة مرة ثانية

فلا يجب أن ييأس . بل عليه أن يحلل العوامل النفسية المحيطة بهذه الهفوة . ثم يستمد من أخلاقه ومن ارادته ما يساعده على التغلب عليها . ولكى أجعل الامر واضحا . قلت لهم انى كثيراً ما اخطىء . وفلان منكم اخطأ . وفلان أيضاً . وهكذا الى أن ذكرت اسم بطل هذه القصة . فاجابنى صبى منهم وقال « لكن انا وانت قد اتفقنا على انك لا تحتسب غلطتى ضدى بعد ذلك . ألم تقل انك قد سامحتنى فى هذه الغلطة » فاجبته بالايجاب وقلت له انى اذكرها فقط على سبيل التمثيل

ولكن الصبى الذى نروى قصته الآن قال « يا يعقوب افندى انا لم اخطىء فى ذلك اليوم على الجبل »

ـــ كلا لقد اخطأت واعترفت بذلك وقلت انك آسف للروح التى ظهرت بها فى ذلك اليوم

ـــ لقد قلت لك هذا حقاً . ولكنى شعرت بعدها انى لم أكن مخطئاً وأنه لم يكن يجدر بى أن اقول انى اخطأت . وكنت أرغب فى أن اتحدث اليك ولكنى كنت اؤجل واسوف الى يومنا هذا

ـــ حسن انى مستعد لأن ابحث الموضوع معك من أوله فى جلسة خاصة فى مكتبى

وعند الانتهاء مما كنا فيه دعوته الى مكتبى وجلسنا نتحدث وهذا ما دار بيننا وكنت أنا البادىء بالحديث

ـــ عندما شعرت بانك لم تكن ملوما فى حادثة جبل المقطم كان يحسن بك أن تأتى فى الحال وتبحث الموضوع معى ، وعلى كل فقد ظننت أن الموضوع قد انتهى واننا قد فرغنا منه ، ولكن لا بأس من أن نعود له . هات ما عندك

ـــ حضرتك قلت انه يجب على الفرد أن يخضع للجماعة . وانك تتشدد فى هذا كثيراً . ولكنك أنت لا تخضع للجماعة

— وكيف كان ذلك ؟

— لاننا اجتمعنا مرة وطلبنا اليك أن تدخل الملاكمة فى القسم فرفضت . فلو كنت حقاً تقيم وزناً لرأى الجماعة لكنت اجبت لنا مطلبنا

وقبل ان اورد باقى الحديث يحسن بى تنويراً للقارىء ان اورد هذه الحادثة والظرف المحيط بها . انا من المنتصرين للملاكمة لدرجة معلومة لانى اشعر ان النعومة الانثوية منتشرة بين شبابنا بشكل مريع . وان الصبى يفضل ان يهان ويضطر لأن يتعرض للتحقير وسماع الشتائم على أن يضرب ولو ضربة واحدة، وهذا مظهر من مظاهر الضعف النفسى الذى ينتاب بيئتنا على العموم ، وسأعود الى فيه فى فصل خر

وأما الآن فيكفى ان اقول أن بعض اللكمات يتناولها الصبى من اللعب تفيده ولا تضره ، ويحسن بنا أن نشجع اطفالنا على ان يحتملوا الضرب وعلى أن يضربوا سواهم . لأن هذا مفيد لنفسياتهم كثيراً . ولهذا السبب ادخلنا هذا النوع من الرياضة الى قسم الصبيان . ولكن بعض الآباء ثاروا واحتجوا على الوحشية المزعومة ، وطلبوا الينا ان نبطلها ، ثم ان الصبيان انفسهم انسحبوا من هذا النوع من الرياضة من تلقاء انفسهم ، فقد كان من يأنس فى نفسه العجز عن مقاومة الآخر ينسحب من اللعبة كلية وكان كل يصر على انتقاء خصمه ، ويحرص على ان يكون اصغر منه . وهذا الخصم بدوره يرفض هذا المتحدى ، وينتقى آخر اصغر منه ، وهكذا الى ان صرنا عاجزين عن ان نستمر فى هذا المران المفيد لهم مع اننى كنت احرص على أن آتيهم بمدرب من خيرة الشبان ادباً وخلقاً . والطفهم معشر آبائهم بالصبيان . وعلى ذلك فقد تجمعت على العوامل كلها منها ماكان خاصا بالآباء وهو المهم فى نظرى . ومنها ما كان خاصاً بالصبيان انفسهم ، وكانت النتيجة انى اضطررت لأن امنعها من قسم الصبيان الى ان نرى ماذا يأتى به الغد

ولكن هذا الصبي حضر مرة ومعه زميل له وطلب الى ان اصرح لهما بالملاكمة . فرفضت لهذه الاسباب . وشرحت له بعضها . ثم قلت له انى سوف أنظر فى الموضوع . وقد نعود اليه مرة أخرى . ولكن لن يكون ذلك قبل الانتهاء من المدارس لأن المدرب الذى أثق به لايستطيع ان يحضر قبل ان يفرغ من الامتحانات فاقترح على أن أتركه مع صديقه يتلاكمان . فرفضت وانتهينا على ذلك ولكن يظهر أنه لم يكن راضياً بهذا الحل . ولذلك فقد انتهز هذه الفرصة التى نحن فيها ليعود له . والآن لنرجع الى الحديث . قلت

— لم تكونوا سوى اثنين ، فلا يصح ان تقول أننا كنا جمعاً . ومع ذلك ألست مسئولا عن هذا المعهد ؟ وألا يحق لى ان أمتنع عن أمر تريدونه ؟

— كلا . لايحق لك ذلك . لأن قوانين الجماعة تستدعى أنك تخضع لها

— اذن أنا واحد منكم لى مالكم وليس أكثر ، واذن فانا لست مسئولا عن هذا المعهد

— كلا ، أنك مسئول عنه . ولكن لنا حقوقا . ويجب ان تخضع للجماعة كما نخضع نحن

— وعندما نختلف فى أمر ؟ عندما أرى أنا رأياً وترون أنتم غيره فماذا يكون اذن ؟

— نحتكم الى أحد الناس . ويحسن ان يكون السكرتير العام للجمعية . فهو الذى يصح ان نحتكم اليه

الحق أقول أن الدم أخذ يغلى فى عروقى ، وشعرت ان كل أعصابى توترت ، وثارت نفسى على هذا الصبى الوقح لأنه ينكر سلطتى انكاراً باتاً . لابل يحاول هدمها من أساسها . فهو مغرور . ولا يحسن ان يترك لغروره فلا بد اذن ان أعلمه درساً لن ينساه ، ولكنى أمسكت بنفسى متلبسة بجريمة الغضب . فكظمت

غيظى علما منى بأن ثورة العاطفة لاتعود عليه بخير ما . لابل سوف تضره اذا خضعت لها فصبرت قليلا الى ان ملكت نفسى . وشعرت انى استطيع ان احتكم للعقل وليس للعاطفة ثم قلت له :

ـــ لنرجع الى حال مدرستك لنرى ماحكمها فى هـذا الأمر . دعنا نبحث فيما تفعل المدرسة فى هذه الحالة ، هل خطر لك ان تقول هذا الكلام لناظر مدرستك ؟ هل سمعت ان طالبا دعا الناظر الى ان يحتكم الى الطلبة فى أمر يخص سياسة المدرسة؟ كلا يابنى ، هذا كثير ، ولا يحسن بك ان تدعه يجول فى مخيلتك

ـــ هذا ناد وتلك مدرسة وشتان بين الاثنين ، هنا نلعب ونحن متساوون . وهناك ندرس ، ولسنا متساوين

ـــ اما من جهة المساواة فقد سمحت أنا بها ، وأعطيتكم من الحرية ماأظنه لايتنافى مع التربية ، ولكن فى استطاعتى أن أمنع هذه الحرية متى وجدت أنها مضرة ببعضكم ، فانا مدير هذا المكان ، أبقى فيه من أشاء وأطرد منه أشاء .

ـــ لاتستطيع أن تطردنى ، لانى سوف أشكوك لرئيسك

ـــ حسن جداً ، اذن لابد من طردك ، لاننا لانرغب فى ان نحتفظ بالصبيان الغير المؤدبين

ثم دعوت الخادم وأمرته أن يحضر ملابسه الرياضية ويعطيها له ، ثم نبهت عليـــه أن لايسمح له بالدخول مطلقا . فقال الصبى لاأريد أن آخذ ملابسى الليلة ، سآتى غداً لآخذها ، فأمرت الخادم ان يطرحها فى الشارع ان رفض أخذها

ويلاحظ القارىء حدة العاطفة فى هذا التصرف بالطبع ، لان كل هـــذه الاعمال لاتصدر إلا عن انسان تملكته العاطفة الحادة ، وإلا فماذا استفاد الصبى من طرده هذا ؟ هل ستتحسن أخلاقه ؟ اظن ان هـذا مشكوك فيه ، فلو كنت تمالكت نفسى ، واجلت الموضوع الى يوم آخر لما كان الصبى ليقول هذا

الكلام . ولما كنت وقعت تحت تأثير العاطفة الهوجاء ، ثم لو لم تكن العواطف متملكتنا كلينا لكان الصبي قد بقي تحت نفوذي فانغلب على هذا العناد وعلى هذه هذه الوقاحة . ولكنت قد ساعدته قليلا في بناء أخلاقه

قد يقول البعض ، لقد نال هذا الصبي جزاءه الذي يستحقه ، لقد كان وقحاً مغروراً ، وكان يجب ان يناله شيء مثل هذا ، كان يجب ان يعاقب بشكل من الأشكال لأن السكوت على هذه الاهانة ضعف ، ولا يصح ان يكون المربي ضعيفاً عاجزاً . ثم لا يصح ان يفهم الصبيان عنه ذلك ، لأن هذا مضر بأخلاقهم كل الضرر ، وقد يقودهم الى الغرور فالتمرد والعصيان . وما كل هذه الا نقائص اخلاقية على أي حال . فما معنى التلطف معهم في القول الى حد يمكنهم من الاغلاظ فيه ؟ كلا كلا ، ان السكوت بعد هذه الاهانة لا منشأ له إلا العجز والضعف ، قد يقول البعض هذا وقد يمكن ان يكون فيه شيء من الصواب لان ظواهر الامور تجعل ذلك ممكناً . وقد يكون ان شيئاً من هذا الشعور تسرب الى نفسي على غير علم مني . فلجأت الى القوة المادية لما أعوزتني الحيلة . قد يجوز ان ثورة العواطف عندي قد أرغمت العقل على ان يخلق لها المبررات خلقا كما هي عادة العواطف مع العقل ، فطردت الصبي لسبب ظاهره عقلي وباطنه شهوة وعاطفة

ولكني موقن الآن انى اخطأت في هذا التصرف . فتحدي ذلك الصبي لسلطتي لم يكن جديا بأي حال من الاحوال . وهو يعلم ذلك من نفسه كما يعلمه من باقي الصبيان اخوانه ، وإذن لو كنت تمالكت عواطفي أنا ، ولم أدفعه الى هذا المركز الخطر — لو كنت أرجأت المسألة إلى وقت آخر كما هي عادتي في معظم الأحيان — لو كنت فعلت هذا لما حدث شيء من هذا القبيل ، ولكان الصبي قد بقي تحت نفوذي أوجهه إلى بعض الوجهات النافعة له . أما هذا العقاب الذي أنزلته به فلم ينفعني أنا بشيء كما لم يعد عليه هو بفائدة

قلت انه لم ينفعنى بشىء والحقيقة انى افدت من هذا الدرس شيئاً مهما . وهو انى أيقنت ان آفة التربية هى فى أن المربين كثيراً مايخضعون لعواطفهم فتفسد عليهم جهودهم وتضيع أتعابهم . لقد زادتنى هذه الحادثة يقينا على يقينى بأنه على المربى ان يتمالك عواطفه واحساسه عند مايعالج الصبيان . فان لم يستطع أن يفعل ذلك ، عليه أن يقيل نفسه من هذا الواجب . فالاقرار بالعجز أفضل من التورط فى الخطأ

لقد بعدنا كثيراً عن الموضوع الذى كنا فيه وهو الفردية . ولكنى أظن أن استقصاء نفسية أحد الصبيان بهذا الشكل لايخلو من فائدة للمشتغلين بالتربية على الخصوص وللآباء على العموم . ومع ذلك فمنشأ كل هذا هو فردية ذلك الصبى فهى الأصل فى كل ماحدث

وعلى كل حال . وبعد كل هذا استطيع ان اقول ان جهادى ونضالى مع تلك الفردية لم يكن عبثا ، لانها أثمرت بعض الثمر . ولانى لم أجدها فى طريق بالكثرة التى كنت أجدها بها فى هذا الصبى بالذات وأما النواحى الاخرى من أخلاقه فقد نجد شبها لها فيما سنورده فى هذا الكتاب عن بعض الصبيان الآخرين

ولا يخطر ببال القارىء انى أعد كل خروج على الجماعة فردية والسلام ، كلا فان الفردية فى نظرى لها حدود ، وأحرص كل الحرص على ان لاأتعجل فى الحكم على أى صبى عند مايخالف الجماعة فى أمر من الامور . أنا أعلم ان امتناع الصبى عن مجاراة الجماعة قد يعود فى الواقع إلى عوامل كثيرة . فاما أنه يرجع إلى عامل نفسى لاغبار عليه عند الصبى ، أو قد يرجع الى الجماعة نفسها كأن تتخير ظرفا غير مناسب له ، وقد يستطيع الصبى أن يقدم هذه الاسباب وقد لايستطيع . والصبى أحيانا يشعر بأمر ولكنه يعجز عن شرحه لغيره . فانا أعمل حسابا لكل هذه العوامل وغيرها عند معالجة حالة من الحالات ، فالفصل بين العوامل وتحديد مفعول كل منها على حدته من مستلزمات الدراسات النفسية المنظمة ، والمؤلف يحرص على ان يكون عليما فيما يقدمه من هذه الدراسات

الفصل السادس

ليست فردية

من الحالات التى يكون فيها الخروج على الجماعات لاسباب قوية أو شبه قوية الحادثة الآتية :

كنا قد عزمنا فى احد الامسية ان نقيم حفلة ازياء مضحكة . وكنا قد شرحنا الغرض منها فى يوم سابق ، والغرض هو هذا بالاختصار ، ان الحفلة تكون بالجوائز ويربح الجائزة من لا يتكلف شيئاً بالمرة أو من يتكبد اقل المصاريف فى تحضير زيه . أى ان الجائزة لا تعطى لمن يكلف اهله أو يثقل كاهلهم بالمصاريف التى لا طائل تحتها ، فيستطيع الصبي مثلا ان يعمل زيه من الورق ، أو من بياضات الاسرة بشرط ان لا يعمل فيها المقص أو يفسدها بشكل من الاشكال ، وهكذا الى آخر هذه الشروط

وكان مساء الحفلة ، وحل ميعادها ، فطلبنا الى الصبيان ان يتركوا الملعب الرياضى . وقد كانوا جلوساً فيه ، ويدخلوا الى غرفة الاجتماعات . وذلك لأن الملعب الرياضى مفتوح ، لا يحجزه عن الفضاء حوله الا شبكة من سلك بسيطة ، ونحن نرغب فى ان تكون هذه الحفلة خاصة . قام كل الصبيان ودخلوا الى الحجرة ماعدا اثنين منهم ولما ارسلت ادعوهما ، سمعت احدهما يقول « كلا لا نريد ان ندخل ، تعالوا انتم هنا » قد يكون هذا التصرف ناجماً عن الفردية وقد لا يكون . فعولت على أن ابحث فى المسألة مع انها لاتستدعى التدقيق الكثير . ولكن يجب على الباحث أن يستقصى التصرفات ويردها الى عواملها ان كان يرغب فى أن تكون لبحوثه قيمة علمية بأى شكل من الاشكال وهذه الحالة وان كانت غير ذات خطر

يجب علاجها بشكل من الاشكال . والا قد تتطور وتكبر ، كالمرض فى اوله الم بسيط ولكنه يصير قاتلا فى آخر الامر

وقابلت الصبي صدفة بعد ذلك اليوم فسألته قائلا

ـــ لماذا يا فلان لم تنضم لرفقائك فى لهوهم وتسلياتهم ؟

ـــ لم يكن عندى سبب

ـــ اذن فانت ملوم ، لأنه كان يجب عليك ان تكون فى وسط جماعتك تشترك معها فى لهوها فتزيد كمية هذا اللهو ، أو تقوم بقسطك من تسليتها والترفيه عنها لأن للجماعة علينا حقوقا »

ـــ فقال ولكن الدنيا كانت حراً ، وكنت افضل ان ابقى فى الهواء الطلق

والمؤلف يميل الى قبول هذا على انه الدافع الحقيقى لامتناع هذا الصبي عن الانضمام للجماعة ـ وذلك لعدة اسباب ، منها أولا ان الصبي نفسه ليس من الفرديين المتطرفين الذين يشعرون ان الصلات بينهم وبين الجماعة منقطعة وان كانت فرديته تظهر بشكل ضعيف فى بعض الاحوال ، ومنها ان صبيا آخر كان لا يحب أن يشترك فى هذه الحفلة فهناك اذن انسان آخر يستطيع صبينا هذا أن يجلس اليه ويتحدث معه ، وهذه من العوامل التى قد تكون سبباً فى عدم انضمامه للجماعة . وهنا لك سبب ثالث وقد ذكره الصبي وهو ان الحر كان شديداً حقا ، وانه كان من الافضل ان تكون حفلتنا فى الهواء الطلق ، فلكل هـــذه الاسباب . ولأنه ذكر الحر اجبته قائلا

ـــ حقا ان الحر كان شديداً ، انك مصيب فيما تقول ، وكان الاجدر بنا أن تكون حفلتنا فى الهواء الطلق

وإذن لم يكن ثمة ما يؤاخذ عليه هذا الصبي فانتهت الحادثة عند هذا الحد . ولكنى افهمته انه لم يكن مخطئا فى هذه الحالة ، وان الذنب واقع على الظروف التى

اضطرتنا لأن نقيم حفلتنا فى داخل الحجرة

ومن هذا يرى القارىء انى لا اعد كل حالة من هذا القبيل فردية أو خروجا على الجماعة . كلا ، لا يذهب المؤلف الى هذا الحد . ولكن الحقيقة التى ذكرناها سالفاً والتى هى موضوع هذا الباب لاتزال قائمة . وهى اننا كأمة اميل الى الفردية منا الى الاجتماع ، واقصد بذلك كل اجتماع لا يسمح لفرديتنا بالظهور والوضوح فنحن نجتمع ونفعل وننشط ولكن كافراد وليس كجماعات . وهذا هو السبب فى أن التعاون عندنا ضئيل ضعيف . والتعاون هو اتجاه فى الميول وجوهر من جواهر الاخلاق قبل أن يكون امراً ماديا أو اقتصاديا . وقبل أن يوجد فى النفوس لا يمكن أن يوجد فى مظاهر الحياة المادية

الفصل السابع

التعاون والاخلاق

يتبين من الحادثة الآتية أن التعاون من عناصر الاخلاق ولن يكون ممكنا فى الحياة المادية قبل ان يوجد فى النفوس ويتبين منها ايضاً أن الفردية هى من اعدى عداة التعاون . وليس اقتل له من ان يكون المشتغلون به اناسا فرديين لايشعرون ان للحياة الاجتماعية شروطا يجب توافرها ومطالب قبل الافراد يجب أن يؤدوها. ومنها ايضاً أن فردية واحدة تكفى لأن تضر بروح الجماعة ضرراً بليغاً . فتفكك ربطها وتحللها الى وحدات كثيرة أو الى افراد مستقلين يشعر كل منهم انه فى حل من الربط الاجتماعية

ولكى يستطيع القارىء ان يلم بظروف هذه الحادثة التى سنوردها فيما يلى يحسن بنا ان نقول كلمة عن نظام جمعية الشبان المسيحية وعلاقة معهدنا بها .فهذا المعهد هو جزء من الجمعية كأحد اقسامها المختلفة ـــ كالقسم الرياضى والقسم التعليمى والقسم الاجتماعى مثلا ، ولكن لقسم الصبيان ـــ بخلاف ما عداه من الاقسام ـــ بناء خاصا وادارة خاصة وادوات خاصة وملعبا رياضيا خاصا ، ولكن ليس له ملاعب لكرة المضرب ـــ التينس ـــ وهذه اللعبة ليست داخلة فى برنامجه الرياضى ، ولذلك فقد حضر الى بعض الصبيان وقد كان الوقت وقت الاجازات الصيفية وطلبوا منى ان اسهل لهم السبل حتى يلعبوا التينس ، فاخذت المسألة الى اخوانى سكرتيرى قسم الرجال وطلبت منهم ان يصرحوا بذلك للصبيان . فاتفقنا على ان نحجز الملاعب لهم يومين فى الاسبوع على أن يكون ذلك فى الصباح فقط، ثم بلغت هذا القرار للصبيان

وعلى ذلك فقد اجتمع الصبيان وأخذوا يتداولون فيما يفعلون ، لأنى

بعد ان أخبرتهم بتكاليف اللعبة فهموا أنها ليست من الامور السهلة على الطلبة إلا من كان منهم فى حالة اقتصادية متوسطة أو فوق المتوسطة ، وهذا معقول لأنه ليس فى امكان كل العائلات أن تجهز أولادها بالمضارب والكرات والملابس الضرورية لهذه اللعبة . ثم أنا أكره جداً أن أكلف الوالدين فوق طاقتهم ، ولذلك فانى أحجم فى مثل هذه الحالات عن أن أستعمل نفوذى مع الصبيان

وبعد ان قتلوا الموضوع بحثاً حضر الى نفر منهم وقالوا أنهم اتفقوا على أن يتعاونوا جميعاً فى شراء المضارب والكرات وما أشبه ، وأنهم يزمعون شراء مضربين لكل عشرة منهم ، فسررت لهذا القرار كل السرور ، ليس لأنهم سيلعبون تلك اللعبة بل لأنهم بدأوا يشعرون بضرورة التعاون الاختيارى ، أى بدأوا يتعاونون من تلقاء أنفسهم ، وقلت لمن حمل الى هذا الخبر منهم أنه وان كان عندى كل أدوات التينس ومع انى أجيد لعبها الا انى مستعد لأن أتعاون معهم فيما هم شارعون فيه ورجوته ان يعدنى كفرد منهم لأنى مستعد لأن أقوم بكل مايطلب منى فى هذا الأمر ، وسألعب معهم بنفسى ولا أكل أمرهم للمدرب الذى يتقاضاهم الاجر ، فقط انتظر منهم ان يتعاونوا ليعملوا كجماعة وليس كافراد فذهب راضياً مرضياً

وفى ثانى يوم سألته ماذا تم فى مسألة كرة المضرب ، فقال لم يتم فيها شىء مطلقاً ، لابل قد أنفض عقد الجماعة وتفرقت وذهب كل منا الى حال سبيله

— وكيف كان ذلك ؟

— لأن فلان رفض ان يشترك ، وفضل ان يشترى لنفسه كل مطاليب اللعبة فما كان من البقية إلا أن قالوا أن المشروع فشل وقرر كل منهم ان يهتم لنفسه فى الموضوع

وكانت النتيجة من كل هذا أن واحدا منهم فقط هو الذى اشترى المضرب والكرات لان مالية عائلته تسمح بذلك وبأكثر من ذلك . وأما البقية فقد انصرفوا

عن لعبة التنس الى سواها . ولست فى الحق آسفا لأنهم انصرفوا عن تلك اللعبة لأنها والحق يقال تعد ضربا من الترف لمثل كثيرين من هؤلاء الصبيان . وانما ما آسف له حقا هو فشلهم فى التعاون فيما بينهم على غرض من الاغراض . فهذه الظاهرة تصدمنى فى كل خطوة اخطوها معهم وفى كل مشروع نزمع الاخذ به

وقد يسأل بعض القراء لماذا لم أتدخل فى الموضوع ؟ ولماذا لم أدفع به وأحملهم على تنفيذه أو استعمل نفوذى معهم حتى يتم المشروع . وكم كنت أحب أن أكون فى مركز استطيع معه ان أفعل شيئا من هذا . ولكننا نتحاشى أن نكلف الوالدين فوق مايستطيعون من الوجهة الاقتصادية . فعظم الوالدين لايدركون الغرض الذى نسعى اليه ، ولاينظرون الى أبعد من الوجهة المادية ومادمت تكلف العائلة ثلاثين قرشا مثلا . فقد كلفتها هذا المبلغ وكفى . وماعدا ذلك فهو من الاعذار التى لانجدى كثيرا ، ثم ان الصبيان أنفسهم يندفعون ، ولايقدرون العوامل الاقتصادية قدرها . ففى نظرهم ان عائلاتهم تستطيع كل شىء ، وكثيراً مايرهقونهم بالطلبات ، ولكل هذه الاسباب أتحاشى ان أشجعهم فى هذه الامور أو أستعمل نفوذى معهم

وعلى كل حال فنحن نحارب الفردية بكل الطرق المنظمة ، ثم نستعمل الطرق العملية فى مقاومتها ، بمعنى ان الفردى يوضع فى الظروف التى تتطلب منه عملا ايجابيا موجها الى خير الجماعة كلها ، ولم أجد فيما وجدت من اختباراتى ومشاهداتى ومطالعاتى عن طبائع الصبيان أن شيئا خير من الالعاب المنظمة التى تتطلب مجهودا مشتركا من الجماعات ومن الافراد ، ففى هذا النوع من النشاط يكون الفعل والحركة والحياة تلقائية — أى أن منشأها جميعا الدوافع الطبيعية البيولوجية ، فهى فى تكوين الصبيان أنفسهم وليست شيئا خارجا عنهم يحملون عليه قسرا ولست تستطيع ان تجد طفلا من غير أن تكون استعداداته وميوله للعب

طبيعية واضحة ظاهرة . فهذه الاستعدادات وتلك الميول موجودة فيه اصلا ومن تلقاء ذاتها . وما على المربى إلا أن يستثمرها الى أقصى حدود الاستثمار ، وعلى حسن استثمارها يتوقف كثير من الاسس التى تبنى عليها الاخلاق

ومن حسنت اخلاقه فى اللعب فقد حسنت أيضا فى الحياة اليومية وفى النشاط العادى . والحياة اليومية والنشاط العادى هما فى الواقع العمل الذى يقوم به الانسان فى الحياة ومن أجل الحياة . فلست أجد فى الحق تفسيرا للحياة إلا بأنها سعى وحركة ونشاط . أو بعبارة اخرى ليس للحياة من معنى سوى أنها عمل فيها ولها . فاذا كان هذا حقا وكانت الحياة فى جوهرها ليست سوى نشاط أو عمل ، فقد صار حتما أن الاخلاق الحسنة أو العالية تتوقف على نوع هذا العمل وذاك النشاط . ومتى حسن وكان مفيدا للجماعة البشرية ومساعدا لها فى نضالها فى سبيل التقدم والتطور ، فقد حسنت اخلاق الفرد وكانت درجتها من الفضائل سامية وعالية

بقى علينا ان نثبت ان الصلة بين العمل واللعب متينة بشكل يجعل عوامل أحدهما تنطبق على الآخر ، ولحسن الحظ فان هذه الصلة موجودة فعلا فاللعب هو فى الحقيقة عمل (شغل) ليس غير . ويرى البعض ان العمل أو الشغل يكون لغاية معينة وأما اللعب فلغير غاية معينة . وأما فى غير هذا الوجه فهما متفقان كل الاتفاق بحيث تستطيع ان تسمى الشغل لعباً واللعب شغلا . فالنجارة مثلا هى عمل النجار او شغله بينما هى فى نفس الوقت تسلية الاستاذ أو المدرس ولعبه. وأما فيما عدا ذلك فهما يستويان

ونحن ننكر هذا الفارق الذى يأخذ به البعض ولا نعده فارقا بأى وجه من الوجوه . والدليل على ذلك فى متناول كل انسان يفهم الحياة ويتفاءل لها ويواجهها بالعدل والقصد ، فالعمل أو الشغل هو فى نظر الكثيرين من الناس

لعب من نوع معلوم ، فلو كان النجار الذى يكسب رزقه من نجارته ومن الكدح فيها طول اليوم ممن يتعشقون مهنتهم ويحبونها لبادر إلى النجارة ليتسلى بها ويلهو فى أوقات فراغه ولكان لايجد التسلية واللهو واللعب فى غيرها من الهوايات

ولنأخذ مثالا غير هذا يستطيع أولو الشأن فيه أن يردونا إلى الصواب فيما لوكنا عدوناه . لنأخذ أناسا يستطيعون ان يخطئونا فى الحال لو ارادوا ذلك . خذ الاستاذ الدكتور طه حسين والاستاذ العقاد والاستاذ سلامه موسى مثلا . واسأل هؤلاء ماهو اللعب فى نظرهم ؟ ثم ماهو العمل أو الشغل ؟ فاغلب الظن انهم يجيبونك ان اللعب حسب ترتيب ورود أسمائهم هو بحث فى الادب الجاهلى أو بحث فى الأدب على العموم . أو بحث فى نظريات العلوم الانسانية الحديثة Human Sciences هذا هو اللعب فى نظرهم . ثم هذا أيضا هو الشغل أو العمل الذى يقومون به لكسب أرزاقهم وأقواتهم

وانا أيضا أقول مثل هذا القول وأشعر مثل هذا الشعور . لأن عملى أو شغلى هو فى نفس الوقت تسليتى ومراحى ولعبى ، فانا أقوم بهذا النوع من العمل أو أن شئت العب هذا النوع من الالعاب لسببين كلاهما مهم وكلاهما ضرورى ، وأما أيهما أهم وأيهما أكثر ضرورة فلست أدرى . والسببان هما أولا انى أقوم بهذا العمل لانه لعبى الذى افضله على سواه ، ثم انى العب هذا اللعب لان منه أكسب عيشى أيضا . ولوقدر لى ان أضمن عيشى من مورد آخر لقمت بهذا العمل نفسه على انه لعبى وتسليتى . وأظن أن هذا هو الحال مع من ذكرت فانهم ايضا يحبون ان يوغلوا فى مباحثهم ودروسهم حتى وان توافرت لديهم موارد للعيش غير هذه

وليس يعنى هذا ان الانسان منا يعد عمله او شغله الضرب الوحيد من اللعب الذى لايريدسواه ، كلا لان لى انا مثلا ضروبا شتى من الالعاب اميل اليها واقضلها

على سواها . وعملى هو اهم هذه الانواع او من اهمها على اقل تقدير ، ولو تركت وشأنى لاخترته من ضمن مااختار من ضروب اللعب واللهو والتسلية ، ويتضح من كل هذا ان اللعب والشغل اقرب الى بعضهما مما يقول به بعض المفكرين

وهؤلاء يذهبون الى ان للعمل غاية خارجة عنه ، وان تلك الغاية فى الواقع هى اقتصادية مادية . فالشغل يتميز عن اللعب بكونه يرمى الى الحصول على المال ، وهذا يختلف مع فلسفة المؤلف الذى لايقسم الافعال الى وسائل وغايات . فليس فيها مايصح ان يكون وسيلة لاغير او غاية فقط ، ولا داعى لان نبحث هذه المسألة هنا اكثر من ذلك لاننا قد تكلمنا عنها فى كتابنا « التربية والاخلاق »

ومتى كان ماقلناه معقولا مقبولا ومتفقا مع المنطق ينتج لنا ان العمل أو الشغل أو اللعب او كيف شئت ان تسميه ليس وسيلة لشىء آخر . بل هو غاية فى نفسه أيضاً وأننا نلعب ونعمل ليس لشىء سوى اللعب او العمل . وأما ماعدا ذلك من النتائج المعنوية او المادية فهى نتائج ثانوية لأعمالنا أو العابنا ، والنتائج الثانوية (By- products) هى لازمة من لازمات الحركة والسعى والنشاط

ومما تقدم نرى ان اللعب ليس يختلف فى جوهره عن العمل ، بل هو فى ذاته عمل ليس غير ، ومن ذلك نرى أيضاً ان اخلاق اللاعب فى لعبه هى فى الواقع اخلاق العامل فى عمله . ومتى استطاع المربى ان يجعل الصبى يلعب على مقتضى قواعد الاخلاق فاغلب الظن أنه ينجح فى تكوين اخلاق هذا الصبى جملة

ولكن الاخلاق شىء مجمل يحتاج الى التفصيل والايضاح ، وهذا ماعملناه فى موضع آخر ، وانما نحن هنا نعنى بنواح خاصة من الاخلاق أو ببعض عناصرها التى تتألف منها ، ونحن نعنى هنا على التخصيص بالفردية ، تلك الناحية من الاخلاق التى لها اتصال برأى الفرد فى الجماعة وتصرفه ازاءها ، وهذه الفردية

كما قلنا يمكن التغلب عليها بأمور كثيرة ومن ضمنها الالعاب المشتركة وأظن أن البحث فيها قد استوفى وان الشواهد التى أوردناها والحالات الخاصة التى بحثناها كافية . ولكن يحسن بنا ان نورد ثلاث حالات اخرى ، وان كانت لم تحدث فى قسم الصبيان إلا أنها وقعت تحت حس المؤلف ومشاهدته . وهى بعد تصلح لأن تزيد ماقلناه بياناً وشرحا . ولا اسمى هـــذه حالات بالمعنى العلمى الصحيح (Case Studies) فليس حكمها كحكم ماذكرته سابقا لان تلك كان فى استطاعتى ان استقصيها الى نتائجها . أو أدرسها عن كثب دراسة علمية منظمة ، وأما هذه الحالات الثلاث فيصح ان نسميها شواهد لاغير ، لأن المؤلف لم يستطع أن يستقصيها الى منتهى ماتصل اليه

obeikandl.com

الفصل الثامن

شواهد على الفردية

الحادثة الاولى

كنت نائماً فى غرفتى ، وكانت الساعة الواحدة والنصف صباحا . وكان يسير فى الشارع تحت نافذتى بعض الشبان (الافندية) وكانوا يتكلمون بصوت مزعج ينفذ من الحيطان والنوافذ ومن اذان النائمين الصماء الى دائرة وعيهم فيوقظهم من نومهم ، ولم يكتفوا بهذا بل اخذ واحد منهم يغنى بأعلى صوته فى الشارع . وقد يكونون من خيرة الشبان ادباً وفضيلة ، الا ان تقديرهم للجماعة ضئيل جدا وزرايتهم بها وبراحتها واضحة بينة لا تحتاج الى دليل أو برهان . فالناس حقاً نيام ، ولكن ماذا يهم ؟ فليناموا ان ارادوا وان استطاعوا ، واما هؤلاء فيغنون فى الشوارع فى الساعة الواحدة ونصف بعد منتصف الليل . فمراعاة راحة الجمهور ليس لها وزن عند الافراد عندنا الا فى القليل الشاذ

وقد يظن البعض أن هذه غلطة البوليس فقد كان يجب عليه أو على الحكومة ان تجبر اولئك على احترام الجمهور ، قد يكون هذا حقاً ، الا ان الاصل فى احترام الجماعة هو الجماعة نفسها ، فهى التى تحمل الافراد على احترامها وتأدية مايجب لها ، فلو كانت الجماعة قوية — واقصد بذلك لو كان لها شخصية قوية — لما تجرأ الافراد على معاملتها بمثل ما يعاملونها به الآن

ولست اذكر الآن من الذى لفت نظر هذا الانسان الى أن « الناس » نائمون وانه لا يحسن به أن يغنى بهذه الطريقة . لست اذكر من قال هذا الكلام ، هل هو عسكرى البوليس أم احد اصدقاء صاحبنا ، وانما اذكر انى سمعته يقول « وانا

مالى . ماذا يهمنى من الناس ، انا حر . اغنى متى اشاء وكيف اشاء » وليس هـذا سوى احدى مظاهر الفردية التى اطلعناك على امرها فيما تقدم

الحادثة الثانية

والحادثة الثانية شبيهة بالاولى الا انها تدل على عكس ما دلت عليه الحادثة الاولى . اى انها توضح لنا كيف ان الفرد فى البلاد الراقية يحرص كل الحرص على راحة « الناس » واحترام شعورهم وارادتهم . وان للجماعة حقوقا على الفرد ، وان الفرد مطالب باداء هذه الحقوق

كنا مسافرين على سيارة احد الاصدقاء مابين بلدة اسمها هارفارد وبين شيكاغو بالولايات المتحدة ، وكان صديقى صاحب السيارة موكلا بقيادتها . وكان منوطاً بى ان اسدد المصباح الكهربائى القوى الى الطريق ، ومن خصائص هذا المصباح انه متحرك فيمكن تسديده الى أى جهة تريدها . ولأنه قوى جداً كان ينير لنا الطريق على مسافة ميل ، وكانت الساعة الثانية صباحاً تقريباً ، ولما كنا متأخرين جـــداً وكانت المسافة طويلة وكان علينا أن نقطع مائة ميل قبل ان نصل شيكاغو ـــ كنا نسير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة تقريباً ، وبسبب هذه السرعة كان تسديد المصباح يخرج عن طوقى فى بعض الحالات . وكان يقع على نوافذ بعض البيوت فى الطريق . فما كان من صديقى الا ان قال لى فى عجلة وفى توكيد كبير « احترس من ذلك » ولما استوضحته السبب اجاب أن النور قد يوقظ النائمين اذا ما نفذ الى حجراتهم ، قلت « وماذا علينا من ذلك ؟ ماذا يحدث لو نفذ الى حجراتهم وايقظهم » ؟ قال « يكون من ذلك ان يلومنا الناس . وليس ذلك فقط بل يقاضوننا اذا أرادوا ، ولهم الحق فى ذلك . لانه من حق الجمهور ان يستريح ومن واجبنا ان نسعى وراء راحة الجمهور ، وليس هذا فقط بل لا يحل لنا أن ننفخ فى نفير السيارة ليلا . واما اذا اعترضنا احد فى طريقنا فنوقف السيارة بدلا من ان نستعمل النفير »

ولا يظن القارىء ان القوانين هى التى تحمى الجمهور فى مثل هذا النظام ، كلا لأن من طبيعة القوانين انها توجد لتثبيت العرف والمتبع ، فليست توجد القوانين لايجاد شيء معدوم اصلا . كلا بل توضع لتكسب ما كان موجوداً صيغة التركيد ، واذن فليس تحرص الافراد على راحة الجمهور هنالك لأن القوانين تنص على ذلك فقط بل لأن الافراد هنالك ليسوا فرديين بالشكل الذى نجده عندنا او بشكل يقرب منه . فالناحية الاجتماعية من اخلاق الافراد قوية ومتمكنة منهم بشكل يجعلهم يحسبون للجماعات حسابا

والفرق بين فرديتنا واجتماعيتهم واضح من امور كثيرة متعددة نذكر منها واحداً وهو طريقة التحدث عند الكثيرين منا . فانك تجد الناس عندنا يتحدثون بشكل اقرب للخطابة منه للحديث ، بمعنى أن حديثهم يتعدى اذن السامع الواحد أو السامعين القلائل الى الكثيرين الذين قد لا يودون ان يسمعوا ثرثرة احد من الناس . فقد يكون بعض الناس ميالين الى الجلوس الهادىء والراحة والسكوت ولكنهم مرغمون على أن يستمعوا لهذا الذى يتكلم فى علاوات الموظفين أو تعديل الدرجات وما اشبه . بينما ليس لهؤلاء من علاوات الموظفين أو تعديل درجاتهم ناقة ولا جمل ، ولكن هكذا يريد ذاك ان يتحدث . وهكذا يصر على أن تسمع الدنيا حديثه بينما هذا لا يعنيها فى كثير أو قليل

كنا مرة جلوسا فى الترام فى نيوهافن من اعمال ولاية كونتكت بالولايات المتحدة ، وكان ولد صغير يتحدث الى امه بصوت مرتفع يصل الى آذان من لاشأن لهم فى الموضوع ، فقالت الام لابنها « يابنى اخفض من صوتك »

ـــ لماذا ياأمى ؟

ـــ لأن الناس موجودون حولنا بكثرة . ومن المستحسن ان لاتسمعهم ماتريد ان تقول

ـــ ولماذا ذلك ؟ انا لااتكلم فى اسرار

ـــ هذا حق ، ولكن من حق الناس ان لايسمعوا صوتك خصوصاً متى كان مزعجاً لعلوه ، من حق الناس ان يجلسوا هادئين اذا ارادوا ذلك ، وهم بالطبع يريدونه ، والا فقد كانوا يصيحون لو انهم لايفضلون الهدوء

فما كان من الطفل إلا أن أخذ يتكلم بصوت منخفض لم نعد نسمعه ، ولم يعد يعكر الهدوء والسكوت المحيطين بنا الا جعجعة مجلات الترام

واذن يدفعهم تقديرهم للجماعة لان يسعوا وراء راحتها ، ويدفعنا عدم تقديرنا لها إلى ان لانقيم وزنا لما ترغب فيه الجماعة ، وأظن ان الفرق بين الحالتين انما يرجع إلى التباين بين الجماعتين ، فهنا جماعة ضعيفة ضعفا كبيراً وهنالك جماعات قوية تجبر الافراد على احترامها وعمل حسابها ، ولكى نبين الفرق بين الجماعتين نذكر هذه الحادثةالثالثة ، وبها سنختم هذا الفصل ، ونترك ذلك الموضوع ـــ أى الفردية ـــ عند هذا الحد

الحادثة الثالثة

كنت فى احدى الخيام ، والخيام هذه تطلق على نظام فى أمريكا محصله ان مئات الالوف لا بل بعض ملايين الصبيان يقضون اجازاتهم الصيفية فى خيام فى الغابات والجبال على شواطىء البحيرات بعيدين عن عائلاتهم وبيوتهم وذويهم ، هنالك يعيشون مع صبيان من سنهم تحت ملاحظة قادة وزعماء من البالغين ، والغرض من الخيام هو انماء اخلاق الصبيان وتنمية ملكاتهم ، ثم تدريبهم على كثير من العادات التى تعود على حياتهم بالفائدة ، وبلغ من شأن الخيام فى نظر المربين ان اليوت رئيس جامعة هارفارد قال مرة ان خير ماعمل لصالح التربية بأنواعها فى الولايات المتحدة فى بحر الخمسين السنة الماضية هو هذا النظام ـــ نظام الخيام

كنا فى احدى هذه الخيام اذن . وحضر بعض الصبيان يشكون صبياً لمدير الخيام Camp Director ومحصل هذه الشكوى ان ذلك الصبى فردى لايعبأ كثيراً بالجماعة التى تضمه . فالطعام لايعجبه مع ان الجماعة كلها تأكل منه ، والالعاب التى يقومون بها لاتوافق مزاجه ، ثم هو يصر على ان تستمع الجماعة له ، وأما هو فلا يحب ان يستمع لها . فما دامت تعمل مايريد فهو معها ، ولكنها اذا عملت ماتريد هى فهو أول الشاذين

كانت هذه محصل الشكوى ، وحاول المدير ان يصلح من شأن هذا الصبى بالنصيحة فلم يفلح لأن فرديته متأصلة فيه . وأخيرا حضر الصبيان الى المدير مرة أمامى وقالوا له هذ الكلام بحرفيته أو بمعناه « نرجوك ان تترك أمر هذا الصبى لنا . ولا نطلب منك إلا ان تغمض عينك عما يجرى برهة » فقال: « افعلوا ما أنتم فاعلون بعقل وبقصد » فقالوا « لانعتزم أمراً يضر أحداً » وانصرفوا

وبعد قليل حضر اليه الصبى باكيا وقال « لقد ضربنى رفقائى » فقال المدير « حسناً . اذهب وافعل كما يفعل رفقاؤك سواء بسواء ، لاتشذ عنهم فى أمر من الامور ، افهمت ؟ » فقال الصبى « نعم فهمت وسأفعل »

وانتهت المسألة